عبد الله كنون

اسلام رائد

دار الكتاب اللبناني — دار الكتاب المصري
بيروت - لبنان القاهرة ج م ع

اسلام رائد

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على نبيه الكريم

١٩٧٩

المقدمة

لم يستغن الحق قط على قوته وظهوره عن الدفاع عنه وتجليته للناس. ولقد جاهد النبى (ص) ثلاثا وعشرين سنة لارساء قواعد هذا الدين واعلاء كلمته، وهو مؤيد بالوحى والبراهين الساطعة، اما نحن، وفى زمن الباطل، فاننا نعتقد ان الحق سينتصر ويعلو من تلقاء نفسه وبدون جهد ولا نضال . .

نلقى بابنائنا بين ايدى معلمين جهلة بابسط احكام الدين ، او من غير ملتنا، او ملاحدة متمردين على خالقهم ورازقهم، ونشتكى من سوء تربيتهم وضعف ايمانهم .

ونترك جماهيرنا عرضة للاهواء وفريسة للادعياء ، ونتعجب من انحرافهم وغلبة الشر عليهم .

ونولى امورنا اناسا تشبعوا بثقافة الغرب وملأ الاعجاب

بحضارته المادية نفوسهم وقلوبهم، ونتساءل من اين اتانا الفساد وغمرت مجتمعنا عوامل الانحلال والالحاد ؟

انني اعتقد ان ما كتب وصور واذيع، دعاية لبعض المذاهب التي شهدنا مولدها وموتها خلال اقل من عقدين من السنين كالنازية والفاشية، اعظم بكثير مما دعونا به للاسلام منذ نهضتنا الحديثة اى خلال نحو قرن من الزمن، وهو دعوة صادقة، ودين عام خالد، ورسالة الهية لجميع البشر، هدفها تحقيق السعادة والاخوة والسلام للبشرية جمعاء. فالعجب حقا، من قيامهم بالباطل وقعودنا بالحق ! ..

ولقد اصبحنا من تفريطنا بحالة تدعو الى نفض ايدينا من الدعوة الى هذا الحق بين الاجانب عنه، والاقتصار على دعوة اهله والتبشير به بين ابنائه وذويه، حتى اذا راجعوا انفسهم وعادوا الى صوابهم، حق لنا ان نفكر فى دعوة من ليس منه ومن يعد أجنبيا عنه .

وقد وضعت هذا الكتيب وجعلته حجة فيما بيني وبين الله عز وجل على تبليغ ما يجب تبليغه للشباب المسلم، والجماهير

المسلمة والحكام المسلمين، الذين لا المام لهم بالسياسة الاسلامية، ونظام الحكم فى الاسلام، وحكمة التشريع الاسلامي، حتى لا يبقوا حائرين بين النظم والمذاهب المستوردة، ايها اوفق لهم واحق ان ياخذوا به، وعندهم الاسلام الذى لا يسد مفاقرهم غيره ولا يطبّ لعللهم سواه ، لكنهم عنه معرضون ؛ وفيه زاهدون :

كالعير فى البيداء يقتلها الظما

والماء فوق ظهورها محمول

ولقد افتتحته بما يثبت الشاكّين والمتذبذبين الذين يظنون ان العصر ولى دُبره للاديان بما حققه من تقدم مدهش فى العلم والتقنية، ثم الممت بعد بالمشاكل الرئيسية التى تمليها الحضارة الغربية على ضعاف النفوس، ولا يجدون لها حلا من ثقافتهم الاسلامية المحدودة او المنعدمة أصلا، كالقومية والعالمية والديموقراطية والاشتراكية وما الى ذلك، مبينا موقف الإسلام منها وحلوله الناجعة لها ، متوخيا بساطة العرض ، وضرب المثل من الاحوال المشاهَدة ، والتركيز على القضية الاساس

وهـى الرجوع الى الاسـلام ، وتحكيمه فى الشـاذة والفاذة من واقع المسلمين واتخاذه القائد الرائد المتبـوع المطاع ، ورد الاعتبار اليه كدين، كعقيدة، كنظـام، كقانـون، كمنهاج كامل للحياة، من غير تبعية ولا انقياد لغيـره، ولا تغليف ولا تغطية بما هو براء منه وضد عليه ..

وان لارجو ان ينفع الله بـه من قصدت نصحهم بصدق واخلاص، وانما الاعمال بالنيات، والله من وراء القصد .

هَل اصبَحَ الدِّين في العَصْر الحَديث ظاهِـرة هَامِشـيَّة ؟

لم يتعرض الدين اى دين كان، والدين الحق بالخصوص، فى جميع العصور الماضية، لمثل ما يتعرض له فى العصر الحاضر من انكار وتشنيع، فمن وصفه بانه خرافة، وانه افيون الشعوب، وانه ضد العلم وضد الحضارة ـ الى الازراء على اهله ورميهم باقبح التهم كالتعصب والنفاق والتخلف والرجعية وما الى ذلك، هذا على حين ان الاكثرية من الامم والشعوب ما تزال متمسكـــــة بعقيدتها الدينية، ومتشبثة بشعائرها من عادات وعبــادات، سواء كانت من اتباع الاديان السماوية او من منتحلى الاديان الاخرى حتى الوثنية منها، وذلك لان حاجة البشر الى الديــن كحاجتهم الى الطعام والشراب، فاذا كان الجسم لابد له من غذاء لاستكمال نموه وقوته والمحافظة على سلامته واستوائه ، فان الروح التى بها يعد الانسان انسانا، اولى بما يقيم اودها ويذكى شعلتها، وليس هو الا الدين .

وانك لترى كثيرا من المسرفين على انفسهم فى ساعات الحسرة والضيق والاضطرار، فتلاحظ من تعلقهم بالله والتضرع

اليه ورجاء رحمته ما تقضى منه العجب، بل انى لا أشك فى ان اكبر الملحدين حين تنزل به النازلة لايقوى لها علـــى دفع، من خطر عظيم يتعرض له، أو داء عضال يصيبه، بله حادث الموت اذ يستيقنه، لن يتردد فى التطلع الى السماء والرجوع عن غلوائه، مما يدل على ان التدين غريزة طبيعية فى الانسان لا يمكنه ان يتخلص منها ولا ان يتخلى عنها وان انكرها احيانا وتوهم انه يستطيع ان يعيش بدونها، ولنقرا على سبيل المثال قوله تعالى فى شان فرعون: (فلما ادركه الغرق قال آمنت) ، والامثلة على ذلك من غير القرآن فى الواقع المحسوس، والتاريخ المتداول، والنصوص الادبية، شعرية ونثرية، وصفية وذاتية ؛ كثيرة لانستطيع ان نلم بها هنا .

انما المشكل الذى تحار فيه الاذهان، هو ان يكون هذا مقام الدين فى النفوس وعلى الصعيد العملى، فى الوقت الذى تشن عليه الحرب التى لاهوادة فيها، ويقاوم بكل الواسائل ، سواء فى البلاد التى اعلنت لادينتها بصراحة، او التى ما تزال تدعى بانها متدينة رسميا .

والحقيقة ان المعركة ضد الدين، ليست معركة الامــم والشعوب، وانما هى معركة طائفة من الناس استولوا على مقدرات بلادهم واخذوا زمام السلطة فيها اما باستعمال القوة والعنف او بطريق المكر والخداع، فاستطاعوا ان ينفذوا مخططاتهم فى السياسة والاقتصاد، وان ينشروا افكارهم التى تهدم دعائم المجتمع المتدين، لانه لايتلاقى ومخططاتهم المبنية على فلسفة مادية الحادية .

وبعبارة اخرى هى معركة الشيوعية والماسونية وغيرهما من الحركات المعروفة بمعاداتها للدين وطعنها فى مثله وقيمه ، وخصصت بالذكر هاتين الحركتين لانهما منتشرتان على نطاق عالمى، ولانهما بواسطة الاستيلاء على مقاليد الحكم بالنسبة الى الاولى، وتسخير الحكام بالنسبة الى الثانية، تعملان على بــث سمومها ورفع راية الالحاد فى كل مكان من غير خجل ولا نكير، بخلاف باقى الحركات والمذاهب كالوجودية مثلا، فانهــا وان كانت تسهم بنصيب وافر فى نشر الالحاد بين الشباب والتحامل على الدين، الا ان ذلك انما يكون من طريق التلقين والفتنة .

وغير خاف ان وسائل الاعلام فى هذا العصر قد تعددت تعددا لم يعرف من قبل، وان فن الدعاية قد تقدم تقدما عظيما فى الثلاثين سنة الاخيرة، اى فيما بعد الحرب العالمية الثانية والذين يسيطرون على وسائل الاعلام ويوجهون الدعاية فى اكثر الدول، هم ممن يتعارض الدين مع مصالحهم الخاصة ونزواتهم الشخصية، فهم لذلك لايدخرون وسعا فى التنديد به سرا وجهرا وبطرق مكشوفة ومستورة، هذا فى البلاد غير الشيوعية التى تسيطر عليها الماسونية وتنخر مجتمعها الفلسفات المادية الالحادية، واما فى البلاد الشيوعية فان الدعوة الى الالحاد ومعارضة الفكر الدينى هى سياسة الدولة وعليها تقوم فلسفة المذهب الشيوعى، ففى مثلها يقال من جاء على اصله فلا سؤال عليه. ويفهم من هذا ان البلاد الشيوعية ليست على دين حكامها ، وان سياسة القمع والقهر هى التى تحول بينها وبين الاعلان عن شعورها الدينى وممارسة شعائر دينها، سواء كان هذا الدين اسلاما او مسيحية او بوذية، الا بقدر ما يسمح به الجهاز الحاكم فى بعض الاحيان ولبعض الناس قصد الدعاية والتضليل .

وهذه حقيقة لا شك فيها، علمناها من بعض الاخوان الروسيين واليوغوسلافيين المسلمين ، ونتحققها بالنسبة الى باقى الشعب الروسى المسيحى وغيره من الشعوب الخاضعة للسيطرة الشيوعية ، بما قدمناه آنفا من كون التدين غريزة انسانية مركوزة فى طبيعة البشر لا معدى لهم عنها لطهارة ارواحهم وسمو انفسهم، وقد ناخذها من الاية الكريمة المعجزة التى تقول (وان من أهل الكتاب الا ليومنن به قبل موته) فهى ان كانت صادقة على الكتابيين الاحرار الذين لا يخضعون لضغط ولا اكراه، فلان تصدق على الكتابيين فى روسيا الحمراء مثلا من باب اولى وأحرى، وتكون مع ذلك من معجزات هذا القرآن الخالد. والنتيجة ان الحملة على الدين، وزحزحة رجاله عن مكان القيادة بسبب تلفيق التهم عليهم، هى خطة مدبرة من حركات سياسية اهمها الشيوعية والماسونية ، تعززها مذاهب فلسفية كالوجودية، وليست مما يدل على ان طبيعة العصر الحديث هى عدم التدين ، وان الدين اصبح ظاهرة هامشية لا يلبث ان يتخلى عن مكانه لهذه المذاهب المادية والنزعات

الالحادية ، ونقولها للشباب المسلم خاصة ونحذره من الاغترار بما يراه ويسمعه من المظاهر الزائفة والضجة المصطنعة التى توهم السذج والقاصرين ان صبغة الدين قد نصلت عن المجتمعات الراقية، وان التدين لم يبق له مجال فى عصر الصواريخ والاقمار الصناعية، ان ذلك كله انما هو من حرب الدعاية، وليس هو الواقع المعاش فى البلاد التى تصدر عنها تلك الاقوال وتلك المشاهد، ولنستعرض بعض الحوادث التى وقعت فى السنوات الاخيرة فى البلاد الاوربية والامريكية مما تنعكس عليه روح التدين المتغلغلة فى النفوس هناك .

فقد عقد فى ابريل 1967 بليما عاصمة جمهورية البيرو من جمهورية أمريكا الجنوبية، المؤتمر الخامس للاحزاب السياسية المسيحية باوربا وامريكا، واتخذ عدة قرارات فى السياسة العالمية، وانجلى اخيرا عن كارثة الطائرة التى كانت تقل عددا من وفود هذه الاحزاب كما ورد فى الانباء . والاحزاب السياسية المسيحية فى اوربا وامريكا الجنوبية منتشرة بكثرة ولها نفوذ قوى فى سياسة بلادها ، وهى الان

الحاكمة فى المانيا وايطاليا وما لا ندرى من دول أخرى ، فاذا كانت هذه منظمات سياسية فى بلاد راقية يضرب بها المثل فى التقدم والحضارة، لم تستنكف ان تنتمى للدين وان تجعل منه شعارا لها، فكيف يقال ان الدين قد تقلص ظلهٔ او كاد، واصبح ظاهرة هامشية فى العصر الحديث؟ ومما لا شك فيه ان المنظمات السياسية هى آخر ما ياتى فى تصنيف المنظمات التى تنتمى الى الدين كالمنظمات الاجتماعية المختلفة المهام والمنظمات التبشرية التى نعرف كلنا نشاطها فى بلادنا فاحرى فى بلادها، وانما قصدنا ان نضرب المثل بالمنظمات السياسية للمغرورين من دعاة التقدمية عندنا الذين يعتبرون الدين من مظاهر الرجعيـة والتخلف ، ونقارن بيـن ما يجرى فى اوربـا وامريكا وما يجرى عندنا . . فهذا مؤتمر الاحزاب السياسيـة المسيحية يعقد للمرة الخامسة بلا جلبة ولا ضوضاء، ونحن لما قامت الدعوة بيننا لعقد مؤتمر اسلامى للقمة، كادت السماء تقع على الارض مما قوبلت به هذه الدعوة من تراشق بالتهم وخصومة حادة بين المسلمين(I) .

I) ولولا هزيمة 1967 النكراء لما عقد مؤتمر الرباط .

اما الاحزاب السياسية الدينية فلا نرى لها وجودا في بلاد الاسلام ، اللهم الا ان يكون في باكستان والهند لظروف خاصة .

وحادث آخر له مغزاه وهو انه لما تقرر أن تجرى مباراة في الملاكمة بين البطل العالمي كلاى والبطل الانكليزي كولبير ، استدعت الملكة اليزابيت ملكة انكلترا كولبير هذا، واقامت له مأدبة غداء احتفاء به وتشجيعا له على منازلة كلاى، واعربت له عن رغبتها في هزيمة خصمه، وما ذلك الا لان كلاى مسلم يحمل اسم محمد ويعتز بدينه ويرى ان انتصاراته في معاركه الكاسحة انما هو من بركة الدين الاسلامي ومزاولته لشعائره وخاصة الصلاة بايمان واخلاص .

انه لم يسبق ان استدعت ملكة بريطانيا العظمى لتناول الغذاء على مائدتها في مثل هذه المناسبة بطلا رياضيا مهما كان شانه، وتعبر له عن رغبتها في انتصاره على خصمه، ولذلك فهم الناس من هذا الاهتمام ان شعورها الديني كان غالبا عليها في هذه الحالة، وانها انما تصرفت بحسب ايحائه، وهي معذورة في ذلك وان كان املها لم يتحقق .

لمن نسوق هذا المثل؟ للرؤساء ام للحكام ام للشباب؟ وكلهم احرياء ان يعتبروا بمغزاه وياخذوا منه درسا وتعليما ؟.

وخبر من الفاتيكان ياتى فى هذه المدة، فيملى على المذبذبين موقفا فى الزعامة الروحية كيف تكون؟ وذلك لما عزم كروميكو وزير خارجية الاتحاد السوفياتى اثناء جولته فى اوربا على زيارة البابا، فقال ناطق بلسان هذا الاخير: ان الحديث بين الرجلين سيدور على مسألة السلام العالمى وعلى حالة الكنائس الكاثوليكية فى روسيا التى يهتم البابا بها اهتماما خاصا.

وهذا الخبر غنى عن التعليق ، فان المجاملة السياسية بين رجل الكنيسة ووزير خارجية الدولة اللادينية الاولى فى العالم، لم تطغ على شعور رجل الدين فتنسيه واجبه فى الإطمئنان على مؤسسات رعاياه فى بلد السوفيات والتأكد من سلامتها، ان هذا هو ما يقع فى الغرب، حيث العلم والحضارة قد بلغا اوجهما، اما عندنا فى الشرق الاسلامى فان قادة الفكر وزعماء الاصلاح يجهدون انفسهم فى ان يتلمسوا للشيوعية وما

اليها جذورا فى التعاليم الاسلامية ويحرصون كل الحرص على تلاقى الفكر الماركسى والاسلام .

اما السؤال عن حالة المسلمين فى الاتحاد السوفياتى ومساجدهم ومدارسهم وأوقافهم، ومجابهة المسؤولين الروس بذلك، فان الديبلوماسية الشرقية الاسلامية لا يمكن ان ترتكب هذا الخطأ الذى يدل على عدم اللياقة.

والى هذا أحب ان اشيـر لما شاهدتـه مرارا فى بعض بلاد اوربا كسويسرا وايطاليا من تجهيز غرف الفنادق بكتاب الانجيل، وكنت لما وجدته اول مرة ظننت انه وضع خطأ فى الغرفة التى نزلت بها، او ان احد المسافرين نسيه فيها، ثم تكرر وجودى له مع دليل التليفون فى الغرفة التى انزلها من كل فندق تقريبا، ورأيت ان بعض النسخ تكون مجلدة احسن تجليد، مما يدل على عمق الشعـور الدينى ويقوى الرغبة فـى القراءة او التصفح على الاقل عند النزيل .

فهذه ظاهرة أخرى من تدين الغربيين لا نظير لها عندنا ولو فى فنادق مكة والمدينة، افبعد هذا يقال ان الدين اصبح

ظاهرة هامشيـة فى العصر الحديـث لمناقضته لرقى العلـم والحضارة العصرية ؟

نعم ان الدين فى البلاد الجاهلة كبلادنا، يعانى أزمة شديدة من حيث الجهل بمفاهيمه الصحيحة، ومن حيث اغترار شبابنا بما يقال عنه من افك وبهتان، ولكنه فى البلاد المتعلمة، علـى ما رأينا له من بسطة وسلطان، ولا يضيره هناك ما يوجه اليه من نقد وتهزيىء، لان القوم قادرون على تمييز الصحيح من السقيم والغث من السمين ووجود طائفة من الملحدين وغير المومنين فى المجتمع الراقى معهود، كما كان فى البلاد الاسلامية على عهد الخلفاء العباسيين وفى العصر الذهبى للحضارة العربية، ولكنه لم يؤثر قليلا ولا كثيرا على وضعية الدين الاسلامى وسيادته والتمسك بعقيدته والحكم بشريعته، بل كانت تلك الطائفـة دافعا قويا لقيام دراسات اسلاميـة عظيمة الاهميـة فى نقض المطاعن التى توجه للدين والتمكين لسلطانه من النفوس، ولذا فان تاثير المتسللين والعابثين بالقيـم والاخلاق الدينية انمـا يخشى فى المجتمع المتخلف وعلى طبقة الشباب التى لم تحصن

بالتربية الاسلامية العالية ولم تزود بالمعلومات الصحيحة عن سمو دينها وعبقريته التى لا يرقى اليها الشك ولا الخلاف .

وهذه هى معركة الدعاة الحقيقيين فى العالم الاسلامى اليوم.

وهذه الحرب الصليبيّة التي
يشنها الغرب على الاسلام ، ما دلالتها ؟

تلك هى قوة الدين فى بلاد الغرب، أعنى اوربا وأمريكا ، وقوة سيطرته الروحية على مشاعر القوم هناك ، من ملــوك ورؤساء، وسياسيين وعامة الشعب، مع العلم بان هذه البلاد هى التى نشأت فيها الفلسفات المادية والمذاهب الالحادية، وهى التى تحتضن الشيوعية والماسونية ، وهى التى اعلنت فصل الدين عن السياسة، وهى التى تتزعم الدعاية ضد الدين عــلى النحو الذى ذكرناه آنفا، فلعل فى ذلك ما يقنع المغلفين عندنا الذين يعتقدون بلادينية الغــرب، فيعلمون انها حديث خرافــة ودعوى باطلة، وانهم مخدوعون بما يسمعون أو يقرآون من تنكر الغربيين للدين وقلة احتفالهم به، والا فلنحول انظارهم الى ناحية أخرى مما يتجلى فيه بصورة اوضح شدة تمسك الغربيين بدينهم وافراط تعصبهم له، وهى الناحية التى تتمثل فى هذه الحروب الصليبية الموجهة ضد الاسلام من بلاد الغرب بتصميم جديد وتحد سافر، ولنتساءل واياهــم: ما دلالتهــا والباعــث

عليها، ان لم يكن الايمان المسيحى الذى ما يزال رائده هو مراغمة النصرانية للاسلام ؟

ولا نوغل فى تاريخ هذه الحروب، ولو القريب منها الذى كان يجمع كلمة الدول الاوربية المتفرقة على حرب الدولة العثمانية باعتبارها دولة الخلافة الاسلامية، فلم يهدأ لهذه الدول بال حتى وجدت فرصة الدهر فى انهزام العثمانيين فى الحرب العالمية الاولى، فوجهت اليها الضربة القاضية التى اقتسمت بها تركتها وصفت حسابها معها، مما حمل الجنرال اللنبى قائد الحملة الانكليزية على مدينة القدس ان يقول عند دخوله لهذه المدينة: « الآن انتهت الحرب الصليبية! »

اذن فلنبدأ بما جد من الحوادث بعد هذه النهاية المزعومة للحرب الصليبية، ففيه او فى بعضه فقط الكفاية! ولتكن قضية فلسطين هى نقطة البدء :

ان هذه القضية من اعظم القضايا التى يتمثل فيها عدوان الدول الغربية على الاسلام، ولاسيما دول الثالوث الاستعمارى بريطانيا وامريكا وفرنسا .

كان الذى تولى كبرها واجترم اثمها أولا هى الحكومة البريطانية التى وعدت اليهود على لسان وزير خاجيتها « بلفور » أثناء الحرب العالمية الاولى ، بالمساعدة على انشاء وطن قومى لهم فى فلسطين ، وحرصت أشد الحرص على الوفاء بهذا الوعد مدة انتدابها على ذلك الجزء من الوطن العربى الكبير ، فلم تدخر وسعا فى تسهيل الهجرة اليهودية اليه، والتمكين لهذا العنصر الدخيل فيه، حتى أصبح يكاثر اهله ويسيطر على مقدراته. ثم عملت على تدويل القضية الفلسطينية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، واشتركت معها فى تحمل مسؤولية هذا الظلم الصارخ حليفتها امريكا التى تبنت القضية فى الامم المتحدة ومارست كل انواع الضغط على الدول الصغيرة حتى صدر قرار تقسيم فلسطين بين اليهود والعرب، ذلك القرار الجائر الذى قضى بتشريد أكثر من مليون عربى وتسليم أرضهم وديارهم وممتلكاتهم لليهود الدخلاء، ولما هب العرب الى الدفاع عن وطنهم السليب، وقفت الامم المتحدة بتحريض من امريكا فى وجههم والزمتهم بمهادنة

اليهود، ثم كان ان التزمت كل من امريكا وبريطانيا وفرنسا بحماية دويلة اسرائيل ومحاربة كل من يحاربها، أى انها اقرت الغصب ومنعت صاحب الحق من المطالبة بحقه .

وقضية فلسطين ليست قضية العرب وحدهم حتى يقال ما لها وللاسلام؟ بل انها قضية المسلمين قاطبة، والعرب لم يكن دورهم الا دور المرابط فى تلك الارض المقدسة التى كان اليها مسرى النبى صلى الله عليه وسلم وكان منها معراجه، وهى أولى القبلتين، وفيها المسجد الاقصى الذى بارك الله حوله، فلا فرق بينها وبين مكة والمدينة فى كونها جميعا مدنا اسلامية يعتبر العدوان عليها عدوانا على كل مسلم اينما كان والى أى جنس انتمى، لانها فى الحقيقة هى وطنه الروحى الذى ورد فيه الحديث المشهور « حب الوطن من الايمان »(1).

---

1) ذكر ابو سالم العياشى فى رحلته عن بعض مشايخه ان المدينة هى وطن كل مومن، وانها المراد بالحديث، ونحن نرى تعميم هذا الحكم على المدن الثلاث المقدسة التى تشتمل على المساجد الثلاثة التى لايشد المسلم الرحلة الا اليها .

ولا اضل ممن يجعل هذه القضية قضية عربية، ويحصر الخصومة فيها بين العرب واليهود، مع ان القوى التى تساندها قوى مسيحية، والتحدى فيها موجه لشعوب الاسلام كافة لا لخصوص العرب، غاية الامر ان الصهيونيين خلفوا الصليبيين ، وكما كانت الدول النصرانية بالامس تقف صفا واحدا من وراء الصليبيين فى غزوهم لفلسطين، فكذلك هى اليوم تقف من وراء الصهيونيين تمدهم بالمال والعتاد الحربى وتصرح بحمايتهم من كل خطر ايا كان مصدره !

ولما نضب معين المساعدة المالية الامريكية لاسرائيل او كاد ينضب، ضغط الامريكان على حكومة الجمهورية الفدرالية الالمانية فحملوها على دفع تعويضات مالية عظيمة بحكم ما تتمتع به من غنى واسع، الى دويلة العصابات، لقاء ما خضع له اليهود من اضطهاد أيام الحكم النازى، وتسببوا بذلك فى تأريث العداوة بين الشعب الالمانى والشعوب الاسلامية التى كانت علاقتها بالمانيا من عهد العثمانيين علاقة حسنة .

بل انهم حاولوا ان يجروا الاتحاد السوفياتى الى الانضمام

لصف الدول الملتزمة بحماية اسرائيل، حتى وقع العـدوان الصهيونى الاخير على الدول العربية، ذلك العدوان الوحشى الذى مهد له الامريكان والانكليز بتهديدهم للعرب واسنادهم لدولة الصهاينة، فلم يبق خفيا على أحد انها حـرب صليبيـة جديدة تتستر خلف العصابات الاسرائيلية، لاسيما وقد نهد للمشاركة فيها متطوعون من امريكا وبريطانيا وفرنسا، وكشف الغيب ان العتاد الحربى والعدد الجهنمية التى أمدت الدول الغربية المذكورة بها اسرائيل وبخاصة الطائرات، هو فوق ما يتصور واكثر بثلاثة اضعاف مما كان فى حساب العرب، وهذا مع تجنيد الرأى العام الدولى والصحافة وشركات الانباء وسائر وسائل الاعلام العالمية ضد العرب، والوقوف بوجههم فى منظمة الامم المتحدة، كأنهم هم المعتدون، وكان خرق قوانين المنظمة كان من جهتهم .

ولولا مناصرة الاتحاد السوفياتى وبعض دول الحيـاد الايجابى والمعسكر الاشتراكى ، لكان الامريكان وحلفاؤهم حكموا على العرب بالانسحاب مما بقى بأيديهم مـن الارض

العربية ودفع التعويضات لاسرائيل،(I) لان حقد الصليبيين على الاسلام لايرضيه الا أن يمرغ جباه المسلمين فى التراب أمام أنذل العصابات. حتى البابا الذى كان حريا ان يمثل التسامح المسيحى او على الاقل ان يراعى خواطر رعاياه من مسيحيى العرب، لم يستنكف ان يغتنم فرصة هزيمة الدول العربية المحاربة واحتلال اسرائيل لمدينة القدس، لينادى بتدويل هذه المدينة، ولكنه عاد، بعد اتصال اليهود بالفاتيكان ومساومته باعطائه حق الرقابة على الاماكن المسيحية المقدسة هناك ، فصرح بعدم معارضته لاستيلاء اسرائيل على القدس وحكمها لها.

فهل هذا كله لايكفى لاقناع من يرى ان القضية الفلسطينية قضية عربية اكثر منها اسلامية، وان الحرب التى تشن على العرب من اجلها ليست حربا صليبية جديدة؟!

وقضايا جنوب السودان ونيجريا والصومال وارتريا

(I) يستثنى فى هذه المرة موقف فرنسا الذى كان مع الحق والذى يرجع الفضل فيه لرئيسها الجنرال دوكول لاغير ، بسبب سياسته الراميةالى خلع ربقة التبعية لامريكا وبريطانيا.

والحبشة وقبرص كلها قضايا شبيهة بقضية فلسطين، انما خلقها تعصب النصرانية على الاسلام، وتربص الصليبيين بالمسلمين للايقاع بهم وعرقلة نهضتهم .. فايقاف السودان لنشاط المبشرين الذى جاوز كل الحدود فى جنوب بلاده، أدى الى اشعال نار الحرب والمطالبة بانفصال هذا الجزء من الوطن السودانى نتيجة لتدخل الدول الاستعمارية من امريكان وغيرهم ، ومساندتها للثوار ماديا وادبيا، الامر الذى كان زنوج امريكا اولى به من المبشرين الاجانب فى السودان. فان هؤلاء لم يحق بهم من الظلم والحيف وفظائع التمييز العنصرى ما يحيق باولئك، وغاية الامر ان الدولة لما رات تصرفاتهم تكاد تؤدى الى قيام حكم اجنبى يتحدى الحكم الوطنى، ضربت على أيديهم، فقامت قيامة حماتهم ودبرت تلك الثورة الرعناء .

وفى نجيريا كان كافيا للاطاحة بحكامها المسلمين وبث الفتنة فى شعبها الآمن ان يعلن أولئك الحكام عن شعورهم الاسلامى ويستنكروا اقامة دولة العصابات فى قلب العالم العربى، وقد صارت بفعل الدسائس الاستعمارية الصليبية والصهيونية

فريسة الفوضى وضحيـــة الحقد لكونها اكبر دولة اسلاميـــة في افريقيا من حيث عدد سكانها المسلمين الذين يناهـــزون خمسين مليونا، فلم يقنع خصوم الاسلام بما اجترموا فيها من آثام حتى صاروا يعملون على تقطيـــع اوصالها وتقسيمها الى دويلات صغيرة يسهل القضاء عليها والتحكم فيها كلما قضـــت المصالح الاستعمارية بذلك . ولولا الموقف الحازم الذى وقفـــه رئيسها فى وجه المتآمرين لبلغ الخصوم مناهم .

ولم لايقسمون الحبشة، والحال ان المسلمين فيها اكثر من المسيحيين وما يعانونه من اضطهاد دينى وحرمان من ابسط الحقوق الدينية، يخول لهم بكل وجه أن يطالبوا بقيام دولة حبشية مسلمة منفصلة عن دولة اديس ابابا المسيحية المتعصبة، وعلى الاقل أن يتمتعوا بامتيازات سياسية نظير ما للمسيحيين فى البلاد العربية والاسلامية عموما ؟!

ان الحبشة المدللة التى تحصل عـــلى اعظم حصة مـــن المساعدة الامريكية للدول الناميـــة فى افريقيا تحمل شعـــار الصليب ، ويعلق عليها الامل فى اكتساح الشعوب الصغيرة

المسلمة التى بجوارها وضمهم الى الاسرة المسيحية ، ولذا فان شعب ارتيريا المسلم ما كاد يحصل على حق تقرير مصيره من الامم المتحدة، حتى رأينا الحبشة تستتبعه بحكم تزوير عملية التصويت التى اشرفت عليها بريطانيا قبل الانسحاب من ذلك القطر. وكذلك يقال فى الصومال الذى اقتطعت اطراف منه واضيفت الى الحبشة والى كينيا، نكاية به، لانه شعب مسلم، وينتمى الى العروبة .

والمؤامرة التى دبرها الاستعمار على قطر جيبوتى منذ مدة قريبة يعرفها الجميع ، فان هذه المقاطعة من الصومال ، ما كادت فرنسا تعترف لها بحق تقرير المصير، حتى هبت الحبشة للمطالبة بها متذرعة بانها منفذها الى البحر وان مصالحها فيها تخول لها حق الاشراف عليها ، وقام الامبراطور هيلاسلاسى برحلة طويلة الى البلاد العربية، نعم (ويا للوقاحة) الى البلاد العربية طمعا فى الحصول على تاييدها، والى فرنسا مرارا، مما اضطر بعض الاحزاب السياسية فى جيبوتى لما راى خطر الاستيلاء الحبشى قد فغر فاه لابتلاعها، ان يصوت لصالح البقاء فى حضيرة الوحدة الفرنسية .

ان الحبشة مدفوعة ولا شك من طرف الدول الاستعمارية الصليبية للعب دور خطير فيالقارة الافريقية، فهى تنفذه بكل دقة، مستعينة بالدعم المادى الاوفر الذى تلقاه من تلك الدول ، ومستغلــة حسن نية الدول العربيــة والاسلامية الافريقيــة ، وسياسة التسامح التى تسلكها هذه الدول، والامر يهدف الى مناهضة الاسلام وانتشاره السريع فى هذه القارة التى لا يريد لها الصليبيون المتعصبون أن تصبح قارة اسلامية خالصة. فاذا كانت آسيا على وجود اكبر الدول الاسلامية فيها لا تعتبر قارة اسلامية بسبب مكاثرة الديانات الاخرى من بوذية وهندوسية فيها للدين الاسلامى، وأوربا وامريكا لا جدال فى انهما قارتان مسيحيتان، فان القارة المرشحــة لان تكون قارة اسلامية هــى افريقيا التى يعتنق الاسلام فيها اكثر من ثلثى سكانها، ولا يزال الاسلام يتقدم فيها بخطى ثابتة لادخال الثلث الباقى من سكانها الوثنيين فى حظيرته... اذا كان هذا الامر حقيقة ثابتة فيجــب أن يوضع فــى طريقه كل العراقيــل ويقاوم بجميــع وسائل المقاومة .

وليس من ينتدب للقيام بهذه المهمة غير الحبشة التى تعد رسميا دولة مسيحية، وهى عريقة فى ذلك ليست مثل بعض الدول الناشئة التى فرضت عليها حكومات او رؤساء مسيحيون والتى هى من صنع الاستعمار، فان الافارقة لايمكن ان يخضعوا لها ولا ان يولوها ثقتهم. وهكذا وضعت الحبشة على رأس منظمة الوحدة الافريقية وجعلت عاصمتها أديس ابابا مقر هذه المنظمة لتعزيز السيطرة والنفوذ، تماما كما فى جعل مقر الامم المتحدة بامريكا التى اصبحت تسيطر عليها وتتحكم فى مقرراتها على ما هو مشاهد، حتى ان ذلك ليدعو بعض الدول المتحررة الى المطالبة بنقل هذا المقر الى دولة محايدة

والمقصود على كل حال ان يرى الافارقة ان السيطرة والنفوذ مقصوران على الدول المسيحية، وانهم ان خرجوا من حصار الاستعمار، فلا مندوحة لهم من البقاء فى قبضة المسيحيين أهل النفوذ والسيطرة على العالم. وليس أدل على هذه الحقيقة من موقف الحبشة من حرب العدوان الصهيونى على البلاد العربية، بل موقف المنظمة الافريقية من اساسها وكثير من الدول

الافريقية التى انصاعت للتأثير الاستعمارى الصليبى الصهيونى فلم تحرك ساكنا ولا استنكرت بقول أو فعل هذا العدوان الذى استنكره معظم الدول المتحررة فى العالم، والتى ليس بينها وبين الدول العربية ما بين الحبشة والمنظمة الافريقية وافريقيا عموما من الروابط والعلاقات .

هذا بعض ما يمكن ان يقال فى قضايا ارتيريا والصومال والحبشة ومخططات الاستعمار والصليبية بازاء مسلميها .

واما قبرص فان الحرب الابادية التى يقوم بها المسيحيون اليونان هناك ضد الاتراك المسلمين، الذين هم من اقدم سكانها والذين كانوا حكامها فيما سبق، ان هذه الحرب يناصرها كل من دول الشرق والغرب المسيحية، ويتضامن فيها ويا للأسف بعض الدول الاسلامية مع المسيحيين وبقطع النظر عن هـذا التضامن، فان الغاية من تلك الحرب معروفة، وهى القضاء على العنصر الاسلامى فى الجزيرة بابادته او باضطراره الى الهجرة حتى تبقى الجزيرة خالصة للمسيحيين، وللاسقف مكاريوس الذى يقوم بدور الكاردينال سيسنيروس المعروف فى حرب الابادة الاسبانية لمسلمى الاندلس .

فكيف يرى شبابنا ومفكرونا الذين يستبعدون الدين من سياسة البلاد الاسلامية، ويرون ان الدين لم يبق عاملا سياسيا فى تكوين القوميات وبناء الشعوب، وانه ان بقى له وجود فعلى الهامش كظاهرة اجتماعية ضعيفة التأثير فى حياة الامة وكيانها، وهى مع ذلك فى طريق التلاشى والانقراض ؟!

هل هذا الرأى عندهم مستمد من فلسفة خاصة او من واقع المسلمين فقط؟ واذن فلينشروا هذه الفلسفة فى البلاد الغربية المتعصبة لمسيحيتها بهذا الشكل الذى رايناه، عساهم يقنعون اهلها برايهم فيريحوننا من تمالئهم علينا، او فليقولوا ان الدين انما هو ظاهرة هامشية فى البلاد المتخلفة لا فى البلاد الراقية !

الاسلام أتى بكل المقومات الذاتية للشعوب

حضرت فى الحلقة الخامسة للدراسات الأندلسية الاسلامية التى عقدت بمدينة مالقة فى شهر دجنبر متم سنة 1966 واستمرت أسبوعا كاملا، وشارك فيها كالعادة باحثون أوربيون وشرقيون بالاضافة ألى الباحثين الاسبان أصحاب البلاد .

والذى يهم ذكره هنا من وقائع الحلقة أنه أقيمت عدة حفلات لتكريم العلماء والاساتذة الذين حضروها وكان من جملتها حفلة محافظ المدينة التى امتازت بخطاب ترحيبى رائع ألقاه المحافظ وإليه يساق الكلام:

حيى المحافظ الباحثين المشاركين فى الحلقة ونوه بعملهم الذى يكشف النقاب عن حضارة الأندلس وتراثها الفكرى، وحياتها فى ظل الاسلام طوال ثمانية قرون، كانت خلالها مركز اشعاع وموطن علم وفن وثقافة تستمد منه القارة الأروبية كلها. وقال ان الاسلام الذى كان دين أجدادنا فى هذه الفترة الطويلة من الزمن، هو باعث تلك النهضة ونافخ روح الجد والعمل فى بلادنا التى كانت قبل دخوله اليها تغط فى نوم عميق .

ثم قال ولا على اذا قلت كلمة انصاف فى الدين الاسلامى، وأنا المسيحى المخلص لدينه، فلن يتهمنى أحد فى عقيدتى وايمانى.

اننى بحبى للاطلاع، وحرصى على المعرفة قرأت القرآن كتاب الاسلام المقدس، ودرست سيرة النبى محمد (ص) ويمكننى أن أقول: ان الاسلام كدين كبير أتى بكل العناصر التى لا يكون الدين كاملا بدونها انه يحتوى على عقيدة سامية فى الاله العلى القدير، تتمثل فى شعاره القائل لا اله الا الله، ولا غالب الا الله وهى أساس التدين فى الاسلام. ويأتى بعدها الأمر بالصلاة التى هى فى نظر الاسلام الصلة الروحية بين الانسان والخالق عز وجل، وبعد الصلاة الزكاة وهى صدقة واجبة على المسلم الغنى لأخيه الفقير. ومع الصلاة والزكاة الصيام، وهو عبادة يراد منها التحكم فى مجموع النفس وتحقيق الصفاء الروحى، والقاعدة الخامسة فى الاسلام هى الحج، والأديان كلها لها مكان مقدس يقصده المؤمنون للتطهر من الرجس والآثام. وزاد المحافظ بعد هذا الكلام قائلا: أى سمو كهذا. وهل كان التدين فى وقت من الأوقات خاليا من هذه الشعائر كلها .

ان محافظ مالقة الذى فـاه بهذه الكلمات الذهبية فى حق الاسلام، كان شابا فى نحو الآربعين سنة من عمره وهو دكتور فى الطب، واسع الثقافة، وخطيب بليغ. وقد أصغى اليه كل الحاضرين وفيهم مدعوون من طبقات مختلفة من المدينة، وفرق فولكلورية وموسيقية من الجنسين فضلا عن الوفود المحتفل بها، فلم ينكر عليه أحد شيئا مما قال، بل هنأه الكثير من الحاضرين على خطابه القيم، وبالطبع فانه لم يكن يقصد الى ترَضّيِّنا نحن المسلمين الذين كنا هناك فان أحدا لا يرضّى غيره على حساب دينه. وزيادة على ذلك فاننا لم نكن الا ثلاثة أفراد: الدكتور حسين مؤنس والأستـاذ محمد عبد الله عنـان وأنـا، فلماذا يترضانا ونحن أقلية فى ذلك الجمع الكبير .

والحقيقة أن ما قاله المحافظ بشأن قواعد الاسلام الخمس، هو نظرة تحليلية لهذه القواعد وبيان لمغزاها السامى الذى يرضى النزعة الفطرية فى الانسان الى التدين، ويجعله مطمئن القلب، طيب النفس لا يشعر بقلق روحى ولا بظمأ حياتى فى حاله ومآله، وقيمة هذه النظرة أنها أتـت من أجنبى يدين بغيـر

الاسلام، وهو فى الوقت شخصية مثقفة، ومن رجال السلطة فى بلد من هذه القارة التى يعترف لها الجميع بالرقى والتقدم ، فهى شهادة للدين بعامة وللاسلام بخاصة، نقدمها الى شبابنا الحائر ومثقفينا المنحرفين عن الدين، المحتجين بأروبا والغرب والتقدمية وعصر العلم. لم نقلها نحن وانما قالها رجل من الصنف الذى يكبر فى أعينهم، والبلاد التى تستأثر باعجابهم .

وهى بعد شهادة تتعلق بما قل أن يهتم به الأجانب عن هذا الدين من شعائره ورسوم عباداته التى يهملها الكثيرون ولا يرون لها أهمية ان اعطوا لغيرها من تشريعاته ومبادئه العامة بعض الأهمية. فقد كثر كلام الأجانب عن الثورة التى أحدثها الاسلام فى الأفكار والمجتمع، وما قرر من حقوق الانسان ورفع من شأن المرأة، وشرع من قوانين للأمم والأفراد، وأنقذ العالم مما كان يتخبط فيه من ظلام الجهل والعبودية .. ولكنهم لم يتكلموا الا نادرا عن الواجبات الدينية، والأعمال التعبدية فى الاسلام كما تكلم عنها محافظ مالقة ونوه بها فى حماس واكبار.

فليس من الرجعية اذن أن ندعو الشباب المسلم الى

التمسك بشعائر دينه، وأهمها الصلاة التى تأتى بعد العقيدة مباشرة. فنحثه على أدائها بايمان وخشوع، ونهمس فى أذنه بأن الدين كما قال هذا الأجنبى لا يكون بدون صلاة. وقال النبى (ص) بين الايمان والكفر ترك الصلاة .

وليس من التخلف أن نتمسك بتشريع الاسلام الذى فكر قبل أربعة عشر قرنا فى حل مشكلة الفقر بفرض الزكاة، وجعلها واجبا عينيا على الأغنياء يزاحم فرض الصلاة ووجوبها، فضلا عما سنه فى هذا الصدد من أحكام أخرى لم يعرفها هذا الأجنبى أو لم يذكرها اكتفاء بذكر الزكاة .

وليس من الجمود أن نصوم ونعتبر شهر رمضان فرصة للتطهير والاستجمام والرياضة الروحية كما قال هذا الأجنبى، وهو الطبيب العارف بما فى الصيام من منافع صحية الى فضائله الدينية، لا أن نتسخطه ونرفضه كما فعل بعض رؤساء المسلمين مع الأسف، تعللا بأنه يضعف الطاقة البشرية ويقلل الانتاج . ولو رافقنا التاريخ لوجدنا أن أعظم الأعمال وأهم الفتوح التى قام بها المسلمون انما كانت فى هذا الشهر المبارك .

وليس من التأخر أن يحج المسلم بيت الله الحرام ، ويطوف بالكعبة المشرفة، التي هي من بناء أبي الأنبياء ابراهيم عليه السلام، ويؤدى المناسك ويقف فى عرفات ضاحياً لله عز وجل، متعرضا لنفحاته متأثرا خطى أنبياء الله ورسله، فـي تلك البقاع المقدسة، التي تحتفظ بذكريات عزيزة وجليلة ، مر عليها آلاف السنين، وهى ما تزال توحى بمعان من السمو والطهر النفسى لا يرغب عنها الا المحروم. أما قال هذا الأجنبي، ان لكل الأديان مكانا مقدسا يحجه أتباعه، ومصداق ذلك قوله تعالى ولكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه. وهكذا ينجلى الشك عن مقاصد الاسلام فى عباداته بتزكية رجل ليس من أهله ، ولا يمكن أن يتهم بالغرض أو التعصب، لأنه مدح ولم يذم، ولأنه مسيحى وليس بمسلم، ولهذا احتفلنا بكلامه وقدمناه في معرض الحجة على قصر نظر الذين يقولون ان الدين لم يبق فيه غناء للشعوب، وأن هذه الرسوم التعبدية بالخصوص قد فاتها الركـب ولم تعد تـؤدى مهمة فى حيـاة الانسان. فالى المغترين من شبابنا ومثقفينا بهذه الحملة على الدين ، نوجهها

كلمة صادقة مخلصة تبصرهم بالحقيقة فى أمر الدين على العموم، وفى دين الاسلام وشعائره على القصد والتعيين .

ولان صاحبنا انما اقتصر فى التنويه بالاسلام على قواعده الخمس، تأثرا بمفهوم الدين عند المسيحيين الذين يقصرونه على العقيدة والطقوس التعبدية. والا فنحن نعلم أن عبقرية الاسلام، أعظم ما تظهر فيما أتى به من نظام شامل للحياة، وأصول الحكم وقوانين المعاملات، ودستور الأخلاق والحقوق الدولية وبناء المجتمع الانسانى على أساس الاحترام المتبادل، والتعايش السلمى بين الأفراد والجماعات والشعوب على اختلاف أجناسها وألوانها ومعتقداتها. فلم يقم فى ظل دولة غير دولة الاسلام نظام نعم فيه بالحياة الكريمه أهل المشرق والمغرب معا، من غير أن ينشب بينهم نزاع طبقى أو خلاف مذهبى أو عداء دينى او تمييز عنصرى يكدر عيشهم، ويهدد أمنهم، ويحيل راحتهم واطمئنانهم الى قلق وخوف دائمين ، كما هو الحال فى أرقى الأنظمة السياسية فى الدول المتحضرة اليوم .

هذه بلاد من أعظم بلاد التمدن الحديث، يقتل البيض

فيها السود ويصطادونهم كما يصطادون الحيوانـات العجماء ، وفى أجسن الأحوال يعاملونهم معاملة المنبوذين، فيعزلونهـم عن مجتمعاتهم وأنديتهم ومدارسهـم ، ولا يقبلون أن يتـزوج احدهم بامرأة منهم، واذا وقع وتجـاوز أحد السود بل احـد الملونين حدا من هذه الحدود، تعرض هـو وقبيله لأشد أنواع العنف وأقسى وسائل البطش، وكانت تلك فرصة القمع والتنكيل بالملونين من قبل رجال الأمن واصدار الأحكام الجائرة عليهم من طرف رجال القضاء فأين هذا من شرع الاسلام الذى أهدر كل الفوارق بين بنى الانسان ، ولم يقم لأحد قيمة الا تقـوى الله، أى خوفه والوقوف عند أوامره ونواهيه، مما يحيى ضميره ويجعله مثال العدل والاستقامة، كما قال تعالى (يا يها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم) وشدد النبى (ص) على هذا المعنى فصرح بمضمون الآية الكريمة فى قوله (لا فضل لعربى علـى عجمى ولا لأحمر على أسود الا بتقوى الله) . .

أين تأتى هذه الحضارة المزعومة التى تبيد المواطنيـن

لا لجرم الا لمجرد أنهم ملونون. من حضارة الاسلام التى احتضنت الأبيض والأسود والأحمر والأصفر، واليهودى والنصرانى والمجوسى والصابىء وسائر الملل والنحل والأجناس، وكفلت لهم حرياتهم العامة، وحمت كنائسهم وبيعهم ومعابدهم، وفوضت لهم فى حكم أنفسهم بشرائعهم الخاصة فى الأحوال الشخصية، وفتحت فى وجوههم أبواب المعاملات التجارية والمالية على مصاريعها حتى تمولوا وتأثلوا الأصول والعقار، وسمحت لهم بالتوظف فى مصالح الدولة، وأرسلت منهم السفراء والرسل الى البلاد الأجنبية، وضربت أروع الأمثلة فى التعايش السلمى فعلا قبل عدة قرون لا قولا كما يتبجح به المتبجحون اليوم.

أى سبة وعار لحضارة الصواريخ والأقمار أخزى وألعن من هذا التمييز العنصرى الذى يحتقر الانسان ويعامله بأشنع المعاملة لكونه لا يتمتع بجلد أبيض، ولو كان من أهل البلاد الأصليين أو لأن لونه ليس على لون السيد الغربى القادم من أوروبا بل على لون الآسيويين والأفارقة .

فلنقارن ذلك بما أعلى الاسلام لبلال من قدر، وقول عمر

ابن الخطاب وهو يجود بنفسه: لو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا لعهدت له بالخلافة، لنعرف فرق ما بين حضارتهم وحضارة الاسلام التى لا تطال.

ومثالان ءاخران :

(أحدهما) هذه الحروب الجهنمية التى تشن على الأبرياء والضعفاء وتقتل النساء والأطفال، وتهدم البيوت على السكان، وتحرق المدنيين بقنابل النابالم، بغيا وعدوانا على الناس؛ لأنهم يأخذون بسياسة أو مذهب لا يوافق المغيرين .

(ثانيهما) هذا التضامن مع المعتدين من الصهيونيين المجرمين والاسناد لهم ومدهم بالمعونة المادية والأدبية ، مع العلم بأنهم غاصبون مترامون أخرجوا العرب من ديارهم وأموالهم، واستولوا على أرضهم ووطنهم بالمكر والخداع، ثم بالحديد والنار.

ان حضارة هذه سياستها وهذا سلوكها لهى أحرى ان تسمى وحشية وصادية، وأن تتسرأ منها الانسانية ويستعاذ بالله منها. فأين هذا من مبدأ حرية العقيدة المقدس في الاسلام، والمعبر عنه بهذه الآية الفذة (لا اكراه فى الدين) وبالآية الأخرى التى

تستنكر اكراه الناس على الايمان وهى قوله تعالى (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين).

وأين هـذا من شريعة الاسـلام التى تمنع التواطؤ مع المعتدين، بل توجب العمل على كفهم عن عدوانهم ولو بقتالهم كما قال تعالى (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيىء الى أمر الله، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين) ويقول النبى (ص) مؤكدا على هذا الأمر (انصر أخاك ظالما أو مظلوما، قيل كيف انصره اذا كـان ظالما. قـال تكفه عن ظلمه).

ان اعتداء كاعتداء الصهاينة على فلسطين، لو وقع على سويسرا مثلا، أو على المكسيك لكان علينا معشر المسلمين أن ننكره ونعمل على منعه ان قدرنا على ذلك. فليس هذا الأمر خاصا بما ينشأ بين طوائف المؤمنين بدليل الآية الأخرى (ولولا دفاع الله الناس بعضهم لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره، ان الله لقوى

عزيز) وبذلك جعل الله عز وجل المسلمين خير أمة أخرجت للناس لا لكونهم مسلمين فحسب وانما لانتصارهم للحق وتعاونهم على البر والتقوى. قال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله).

نعم وأين حربهم من حرب الاسلام الرحيمة التى تمنع أن يقتل صبى أو امرأة او شيخ او راهب، وان يقطع شجر او يحرق زرع، وأن يمثل بقتيل أو يجهز على جريح. حتى لقد قال الدكتور جوستاف لوبون الفرنسى صاحب كتاب حضارة العرب: «لم يعرف العالم فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب» وحتى اننا نستطيع أن نقول استناد الى الحديث الشريف (لا يعذب بالنار الا خالقها) إن الحرب بالنار فى جميع أشكالها محرمة فى الاسلام؛ ولولا أن العدو يحاربنا بها لم يجزلنا أن نحارب بها.

وظاهرة عجيبة فى تاريخنا الطويل، هى أننا دائما كنا نشترى السلاح من الافرنج ولا نصنع منه حتى كفايتنا ولا نزال نشتريه منهم الى الآن. وقضية ذلك أن روحنا السلمية، برغم كوننا مهددين منهم باستمرار، لا تسمح لنا بصنع أدوات الفتك

والتدمير والخراب، لأن رسالتنا رسالة عطف ورفق واحسان، لا رسالة قتل وسحق ومحق، وهى مظهر الخطاب الالهى للرسول الكريم (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) فلا نستطيع أن نحيد عنها، ولا ان نتنكر لها، وقد أشربناها فى قلوبنا وجرت مجرى الدم فى عروقنا، ونحن نرى أن لا حياة للبشر ولا سلم علـى الأرض الا بالأخذ بها واتباع تعاليمها . فان فيها كل المقومات الذاتية للشعوب التى تجعلها تعيش فى أمن وسلام مع المحافظة على كيانها ومظاهر استقلالهـا، والى الآن لم يظهر أى مذهـب أو نظام لا تكون غايته استغلال الشعـوب، وتحطيم سيادتهـا بوسيلة ظاهـرة أو خفية، فمـن الزور والخداع مقارنة هـذه المذاهب والنظم بالاسلام وشرعه الحنيف .

الإسلام والقوميات

طغت فى هذا العصر الدعوات التى تصد عن سبيل الله، وهو وحده سبيل الالتقاء بين اجناس البشر . والدعوات التى تفرق بين الشعوب والامم، وهم احوج ما يكون الى الاجتماع والائتلاف. ومن اعظمها أثرا فى النفوس، واكثرها ضررا على المجتمع الانسانى، هذه النزعات القومية التى شاعت وذاعت عند الغربيين فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وتسببت فى كثير من المآسى والحروب لدول اوروبا وامريكا، ثم ذر قرنها فى البلاد الاسلامية والعربية مع مطلع هذا القرن الذى نعيش فيه، وكانت هى العلة فى تشتيت كلمة اهلها وتفتيت وحدتهم ، الامر الذى جرأ عليهم ارذل القوم، ومكن لخصومهم من التحكم فيهم حتى بعد استقلالهم .

ولعل بعض الناس يتساءل: هل الاسلام ضد القوميات المختلفة بالطبع، أو هو يؤيدها ولا يعارضها ؟

ان الوعى القومى فى العصر الحديث قد تغلغل فى نفوس الافراد والجماعات من كل شعب وقبيل، بحيث يصسب اقتلاع

جذوره لتعميق الشعور الاسلامى واحلاله محله، فما هو موقف الاسلام اذن من هذه المعضلة؟ او ما هــو الاتجاه السليم بازاء الفكرة القومية ، والعالمية ؟ ..

والجواب ان الاسلام لم يتجاهل الشخصيــة المميزة ولا الواقع التاريخى للشعوب . وما أتى به من نظام عام للحكم ، وتوجيه شامل للاقتصاد، وتربية روحية للانسان، انما قصد به بناء المجتمع البشرى عـلى أساس من العدالــة الحق، وعدم استغلال الغنى للفقير، وتطهير النفوس من الرذائل التى تؤرث العداوة بين الناس .

فاسناد الحكم الى النخبة المختارة من ذوى الخبرة والنزاهة والسابقة فى خدمة الصالح العام، كما يتوخى الاســلام، انما يراد به ابعاد المتسلطين والانتهازيين ممن لا كفاءة لهم ولا فضل الا التغرير بالجماهير واغتنام الفرص التى يظهر فيها امثالهم. وتحريم الربا ــ مثلا ــ الذى يعد دعامة ثابتة فى المعاملات المالية فى الاسلام، هــو من اعظم العوامل عـلى تحرير الاقتصاد مــن الاستغــلال والاحتكار والتصرف فــى موارد الدولة بالغــرض

والشهوة والمصلحة الشخصية، الذى كثيرا ما يكون السبب فى انحلالها. وتربية الناس على مراقبة الخالق عز وجل، والاستعداد ليوم المعاد، تجعلهم يبتعدون عن كثير من الرذائل، خوف مناقشة الحساب وشديد العقاب.

واذا قامت المجتمعات على هذه المبادىء الحميدة والخصال الكريمة، سادت فيها روح التفاهم والتقارب، وانعدمت بينها او كادت، موجبات العداوة والبغضاء، ووجد التعايش السلمى بين الافراد والجماعات والامم والشعوب، الذى هو الغاية من قيام المنظمات الدولية، كعصبة الامم المنحلة، ومنظمة الامم المتحدة اللتين لم تحققا ـ ويالِلاسف ـ هذه الغاية قط، كما حققها الاسلام فى عهوده الزاهرة، لما كانت اكثرية شعوب القارات الثلاث المعروفة اذ ذاك، تنضوى تحت لوائه!

وهذه المقاصد النبيلة التى هى مجمل دعوة الاسلام، ورسالته الخالدة لم تمس ـ كما رأينا ـ بوجه من الوجوه، المشخصات الجنسية للشعوب ولا كيانها الخاص. بل اننا لنجد فى شريعة الاسلام ما يؤكد الفوارق الجنسية، ويعترف بأن لكل

قوم كيانهم المستقل، لكن لا على أصل التنابز والمنافرة كما هو في الواقع حال معظم الشعوب اليوم، ولا سيما المتمدنة منها، التي كلما تمدنت توحشت، وانما على أصل التعارف والمعاملة، لتبادل المصالح وعمارة الارض .

ولنستمع الى هذا النداء الالهي الكريم، في القرآن العظيم. «يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، ان أكرمكم عند الله أتقاكم، ان الله عليم خبير» فقد اثبت أولا ، مساواة الناس بعضهم لبعض في أصل التكوين والولادة والنشأة الاولى. وبذلك نفى ان يكون لبعضهم فضل على بعض، بحكم تساويهم في الاصل. واثبت ثانيا، انه جعلهم شعوبا وقبائل، وهذا اعتراف بوجود القوميات المتعددة لا مرية فيه، لانه امر مشاهد، لكنه نبههم الى ان حكمته ليست هي التعصب والانانية والتعالي، بل التعارف المثمر للتقارب والتعاون على الصالح العام، وذلك في قوله تعالى (لتعارفوا) فهي كلمة توزن بالذهب، لانها لخصت موقف الاسلام من القوميات ، وحكمه عليها، والاتجاه السليم الذي يجب ان تتجه فيه، وذلك بأوعب عبارة وادقها واخصرها .

فالاسلام لا ينكر القوميات بل يعترف بها، لان وجودها شيء طبيعي، ومما تقتضيه ضرورة العمران. غير انه يميل بها عن عُبِّيَّة الجاهلية وتفاخرها بالآباء والاجداد، وعن تعصب الشعوبية وأنانيتها، وعن نظرية الجنس السامي والعنصرية المقيتة، التى تسود الآن أجزاء من العالم برغم تقدمها فى العلم والحضارة المادية. فالشعور القومي اذا بلغ الى هذه الدرجة من الغلو والحدة، لا يرضاه الاسلام ولا يقره بحال. لكنه لا يلغيه اطلاقا، بل يلطفه ويهذبه حتى يصير معقولا ومقبولا، من أجل أن القومية ما وجدت الا لتكون سبيلا للتعارف والتعاون، فلا ينبغي ان ننحرف بها الى ما يضيع الحكمة من وجودها ، فضلا عن أن ادعاء التفوق لجنس على جنس بمجرد الاصل والعرق ، هو ادعاء باطل لا نصيب له من الصحة، مع ما علم من تساوى الناس فى اصل الوجود ومبدأ الخليقة .

نعم أقر الاسلام مبدأ التفاضل بين الناس بشي آخر غير الجنس والاصل، وهو التقوى ، كما يستفاد من ذلك النداء الالهى الآنف الذكر الذى يقول فى الآخر: «ان اكرمكم عند الله أتقاكم» .

والتقوى قيمة خلقية عظيمة تندرج تحتها جميع الفضائل الانسانية. ومبناها على خوف الله عز وجل واجلاله، ومن ثم كان صاحبها مامون البوائق، فلا يصدر عنه ما ينقض العهد الذى ألتزمه باعتناق الاسلام، وهو عدم الزيغ عن المحجة البيضاء. ولذلك كان الاسلام وما يزال دعوة حققت وتحقق المساواة بين الشعوب على اختلاف عناصرها وألوانها ولغاتها .

وجاء فى حديث صحيح أن النبى (ص) سئل عن أكرم الناس، فقال أتقاهم! قيل ليس عن هذا نسألك. قال: فعن معادن العرب تسألوننى؟.. خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام اذا فقهوا(1) .. فلم يهدر ماضى القوم، ولا أهدر مفاخرهم، بل اقرها واكدها بشرط ان يتفقهوا فى الدين ويعلموا حلاله وحرامه. ولا شك انهم حينئذ سيتخلون عن كثير مما كانوا يحسبونه فضلا وشرفا، وما هو الا عنجهية خرقاء، ان اعتد بها أهل الجاهلية، فهى عند من هذبتهم تعاليم الاسلام تظاهر سخيف.

(1) رواه البخارى ومسلم

ولنستمع الى قوله (ص) فى حديث آخر : «ان الله قد اذهب عنكم عبية(1) الجاهلية وتفاخرها بالآباء، انما هو مومن تقى أو فاجر شقى، الناس كلهم بنو آدم ، وآدم من تراب(2)». فصرح بما يفهم من الحديث السابق ، وهو النهى عن التكبر والترفع والاعتداد بمآثـر الجاهلية التى لىس لها فـى شرع الانسانية الرشيدة وزن .

وهذا ان كان ورد فى حق العرب الذين بعث الله نبيه الكريم منهم، فهو يجر ذيلــه على غيرهم من الامم والشعـوب بالاحروية، لا سيما والمعتاد ان اصحاب الدعوات المختلفة ، درجوا على ان ينسبوا لقومهم من الفضل والسمو على غيرهم ما هو معروف، فاذا نفى النبى (ص) ان يكون للعرب أى فضل الا بالعلم والعمل، فهو بنفيه كذلك عن غيرهم. بل أنه صرح بذلك فى الحديث القائل: «لا فضل لعربى على عجمى ولا لاحمر على أسود الا بتقوى الله».

---

1) بضم العين وكسرها مع تشديد الباء والياء: الكبر
2) رواه أبو داود والترمذى

فبان بهذا ان الاسلام ليس ضد القوميات، ولا يحاربها ، وانما هو ضد ما ينشأ عن الغلو فيها، ويحارب حدة الشعور بها، كيلا تصبح وسيلة للتفرقة والعداوة والبغضاء. وبالضرورة هو أيضا لا يقبل ان تكون الها معبودا وشعارا يؤلهه الجهلة والقادة الذين يستغلونهم، فيلقنونهم ان الموت فى سبيلها شهادة وان تقديسها من المعتقدات القلبية، فالشهادة انما تجب لمن مات فى سبيل الله، لا لمن دافع عن مطامع واغراض شخصية مما يكون غالبا باعثا على الحروب ومنازعات الدول . والشهادة انما هى الجزاء الالهى لمن جعل كلمة الله هى العليا، لا لمن حارب ليسود فلان او حزب او حلف بن الاحلاف.

واما القدسية فانما هى لله عز وجل، وليست لمخلوق مهما علا شأنه. ولا يستطيع المخلوق ان يوجبها لاحد ولا لمعنى من المعانى، ما لم يكن لله الجانب الاوفر فيه، بل القصد الاول والاخير .

وهذا المنحى الاعتقادى لا تحوم القوانين والمذاهب المعاصرة حوله، أعنى انها لا تعتبره ولا تعطيه أى أهمية لانها

أسقطت مراعاة جانب الله من حسابها، فلذلك اوجبت للقومية ولغيرها من الشعارات كالعلَم الوطنى ما لله من قداسة واجلال وعظمة وتمجيد وخضوع. فنشأ عن ذلك من الجهالات والمحاذير ما هو معلوم ، واشرك الناس مع الله غيره وهم لا يشعرون. ولذا فنحن ننبه عليه المسلمين، ونرشدهم الى ما ينبغى لهم ان يأخذوا به فى هذا الصدد من التمييز بين ما هو عقيدة وما هو واجب، وما يختص بجلال الله من العبارات والالقاب ، وما فيه سعة للتعبير عن التكاليف الوقتية والالتزامات القانونية .

ولما رأى الناس شرور الحروب الكبرى وعانوا من أهوالها ما عانوا، وهى التى انما تنشب من اجل النعرات القومية الجامحة الطائشة، أرادوا ان يتلافوا أخطارها ويعالجوا أضرارها، فأنشأوا الجمعيات العامة التى تشارك فيها جميع الامم والشعوب كعصبة الامم التى وجدت بعد الحرب العالمية الأولى وهيئة الامم المتحدة التى وجدت بعد الحرب العالمية الثانية ، وانحلال الاولى دليل على عدم نجاحها فى تحقيق الغاية التى وجدت من أجلها، أما الثانية فانها سائرة فى سبيلها، والدليل

على ذلك انها لم تستطع ان تمنع حتى الميز العنصرى السائد
فى افريقية الجنوبيـــة، ولا أن تكــف العنصريين الجدد فــى
روديسيا عن الاستبداد بالحكم وتسخير أهل البلاد الاصليين
لمصالحهم الخاصة ! كما ظهرت بعض المذاهب السياسية التى
تكتسى صبغة العالمية، وتريد أن تلاشى الفروق وتقضى علـى
الخلافات بين الامم والشعوب كالشيوعية، ولكن هل نجحت
هى أيضا فى بلوغ هذا الهدف؟ أم أنها زادت الطين بلة، وقسمت
العالم الى معسكرين متطاحنيــن؟ بل انقسمت على نفسها الــى
جبهات عديدة يوشك ان يصطدم بعضها ببعض! . والمهم هو
ان ما لم تحققه الامم المتحدة وهى الآن تنيف عن مائة وخمس
وعشرين دولة ، والشيوعية الدولية، قد حققه الاسلام بمفرده ،
وعاشت فى ظل حكمه العادل، قوميــات لا تعد ولا تحصــى،
محتفظة بدينها وخصائصها، ومتمتعة بحريتها الكاملة. ولم يقم
بنيها خصام قط، خلال تاريــخ الاسلام الطويل، الا فــى بعض
الظروف القليلة، وكانت الايدى الخفيــة من أعدائه، هى التــى
تهيجه وتستفز شعور المواطنين وتستغل سذاجتهم، وذلك كما

وقع فى أواخر أيام الدولة العثمانية وفى خصوص بعض الاقاليم.

واهم من ذلك كله ان موقف الاسلام من القوميات موقف معقول وحكيم وفضلا عن عـدم معارضته لها فى الجملـة، فان المنظمات العالمية والمذاهب السياسيـة الكبرى لم تجـىء بأفضل منه ! ..

ظلت بلاد الاسلام قلعة حصينة لا ترام ولا سيما في معنوياتها، منذ ان تقعدت قواعدها وتأصلت اصولها الى نهاية الخلافة العثمانية، وقد اصطدم المسلمون في حركة الفتح الاولى بامبراطوريتين عظيمتين هما امبراطوريتا فارس والروم، وكانتا تمثلان حضارة الشرق والغرب بما فيها من علوم وءاداب وفنون، فما تأثروا بهما ولا بالوهما مبالاة، حتى ليحكى انه حمل الى احد خلفاء بني امية صندوق مقفل من ذخائر الاكاسرة، فأمر بتسويقه على ما هو عليه، فقيل له لو فتحته لترى ما فيه! فقال: وما عسى ان يكون فيه الا حماقة من حماقات فارس، فاشتراه يهودي بثمن مرتفع، فلما فتحه وجد فيه صندوقا ثانيا ثم ثالثا ثم رابعا الى سابع صغير، واذا فيه بطاقة مكتوب فيها ما معناه: من اراد ان تطول لحيته فليمشطها من اسفل ! فعجب الناس من حصافة رأي الخليفة وصدق تقديره .

والواقع ان القوم كانوا معتزين بأنفسهم، مستغنين بما

ءاتاهم الله من هدى ونور وحكمة وايمان عن كل عطاء اجنبى، واستلهام لغير ما بين ايديهم من كتاب عزيز وسنة طاهرة . وكانوا يرون ما عند عدوهم من كثرة عدد وقوة عدة، وهم مع ذلك ينتصرون عليه ويهزمونه شر هزيمة، فلا يشكون فى انه على ضلال وانه مخذول، وانه اولى ان ياخذ عنهم ويسترشد بهم، والعكس باطل لا يخطر ببال احد منهم .

ولما قامت حركة النقل والترجمة لعلوم يونان على قدم وساق، ايام الخليفة المامون، لم ينصب اهتمامهم الا على ما فيه نفع ظاهر من علم الطب والكيمياء والهندسة والرياضيات على العموم، حتى الفلسفة ما نقلوها الا للاحتجاج بها على خصوم الاسلام والرد عليهم باساليبهم، مع تصحيح ما فيها من خطأ وتبيين ما اشتملت عليه من اوهام، بحيث أدى الامر الى وضع علم الكلام، وهو الفلسفة الاسلامية التى قابلوا بها فلسفة اليونان ، وحموا عقيدة ابنائهم من ان تجرفها الوساوس والاغاليط .

اما الادب والشعر ، ومنه الملاحم والمسرحيات فانهم

استخفوا بانتاجهم فيه، خصوصا وهو يكتسى صبغة الوثنية المغرقة فى الشرك والالحاد وتعدد الآلهة، مما يتنافى ورسالة التوحيد التى جاءوا بها وبلغوها للناس، فلم ينقلوا منه شيئا مكتفين بادبهم وشعرهم وبيانهم الذى لم يكن يوازيه فى نظرهم بيان غيره .

واستمر الحال على هذا المنوال، طوال ثلاثة عشر قرنا، اى مدة قيام الخلافة الاسلامية واستظلال المسلمين فى المشرق والمغرب بظل رايتها الخفاقة، حتى فى عهود ضعفها وتقلص نفوذها، ما قامت دعوة منحرفة، ولا وجد مذهب زائغ، الا كشفوا عواره وقابلوه بالرفض، احتفاظا منهم بالاصالة والوعى والكيان الروحى الذى يصون وحدتهم ويفرض وجودهم ويجعلهم يدا على من سواهم .

وان التاريخ ليشهد بما كان عليه المسلمون من التكافل والتضامن، وهم فى اسوإ حالات الانهيار، فانكلترا كانت تدارى دولة الخلافة خوفا من قيام مسلمى الهند عليها، ومصطفى كامل زعيم الحزب الوطنى المصرى كان يلقى تاييدا مطلقا من الخليفة

عبد الحميد .. وبرغم ما كان عليه وضع الاقتصاد العثمانى من تدهور، فان هذا الخليفة رفض العطاء الضخم الذى عرضه عليه اليهود لقاء الاذن لهم باتخاذ فلسطين موطن هجرة .. بل ان تكالب دول اروبا قاطبة على دولة الخلافة قصد رفع يدها عن بلاد البلقان، فى حين كانت تلك الدول تبسط سلطانها على الشعوب الضعيفة فى افريقيا وءاسيا، ومن بينها شعوب اسلامية، ما كان ليفت فى عضد هذه الدولة ويجعلها تطأطىء الرأس للاعداء، وانما كانت تخوض الحروب الطاحنة دفاعا عن سيادتها، ولا تحجم ابدا كما تحجم الدول العربية اليوم عن حرب اسرائيل، مع ملاحظة الفرق العظيم بين دويلة العصابات، والدول الكبرى التى كان الخلفاء العثمانيون يواجهونها بقوات غير متكافئة ولا مقاربة . وما ذلك الا من تمثل الشخصية الاسلامية فى دولة الخلافة بجميع خصائصها وقيمها، وتعاطف المسلمين معها ومساندتهم لها ولو كانوا خارجين عن سلطتها كمسلمى المغرب. فهى تقاتل بقوة معنوية تقاوم قوة العدو المادية، وتصمم على النصر او الشهادة كما كان المسلمون

الاولـون يفعلـون ، ولا تعطـى الدنيـة وترضـى بشماتـة الاعـداء ربحـت المعركـة ام خسرتهـا .

الى ان وقع الانقلاب التركى وقام الشبان الاتراك بتأسيس اول حكومة ديموقراطية كما يقولون، فدخلت العناصر المناوئـة للاسلام فى الحكم وتمكنت من تقويض كيانـه، وغمر مثلـه العليا واخلاقياته السامية بمبادىء الغرب وافكاره الهدامة، ثم اطاحت بعد ذلك بالخلافة الاسلامية، فتمزق شمل المسلمين، وصارت تركيا دولة صغيرة من الصف الثالث، وقامت فى كل بلد إسلامى كان خاضعا لها، حكومة من نفس الطراز، اعتقادا بان ذلك هو المثل الاعلى للحـكـم، وان اوروبا ما تقـدمـت الا بحكوماتها الديموقراطية المنبثقة من الشعب على ما يزعمون، ولم يفكر احد فى اصلاح الفساد ورأب الصدع الذى منه أ'تى المسلمون، وأن السيادة انما تكون من الاصالة، والتفوق لا يكون بالتقليد، وهكذا وقع للمسلمين ما وقع للغراب الذى اراد ان يمشى مشية الحمامة، فلا هو بمشيته ولا بمشيتها.

وكثرت التجارب الفاشـلـة ، والانقلابات السياسـيـة

والعسكرية ، وتوالى الانزلاق نحـو الحكم الدكتاتورى مغلفا بالادعاءات المختلفة من الديموقراطيـة الشعبية والاشتراكيـة الاسلامية تارة والعلمية تارة اخرى، ويعنون بها الشيوعية ، وفى بلاد العرب بالخصوص انتشرت الدعوة للقومية العربيـة والبعث العربى، انطلاقا من مفـهـوم القوميات الاروبية التـى نشأت فى عهد الثورة على الكنيسة واستقلال السلطة المدنية عن السلطة الروحية، ولذلك كان ابعـاد الديـن عن مشخصات القومية العربية من الشروط الاولى، والهدف هو الاسلام كما لا نحتاج ان نقول، فصار الدين عنوانا على الرجعية والتخلف، وان كانت الدولة التى ارغمت انـوف العرب انما قامت علـى اساس دينى متعصب.

وفى هذا الوضع تسربت الى بلاد الاسلام مذاهب وءاراء صبغت المسلمين بكل لون، واشاعت بينهم الفساد والالحاد، وعملت على تفكيك ما بينهم من روابط، بل جعلت بعضهم لبعض عدوا، وروجت لسوق الحماقـات بينهم، فلم يوجـد فيهم من يدفعها كما دفع الخليفة الاموى حماقـة الصندوق الكسروى،

وأدى الامر الى أن صار المسلمون والعرب يتقاتلون من اجـل اختلافهم فى انظمة الحكم المستوردة، ومن اجل اختلافهم فـى المذاهب السياسية المستوردة، وتشن اجهزة الاعلام فى بلادهم حملات الدعاية للنزعـات اليمينية او اليساريـة، متوددين بها لمستعمريهم الجدد، ومتنكرين فى الوقت نفسه، بعضهم لبعض، ولا تظهر بدعة ولا سخافة فى عالم ما يسمى بالموضة الا تبنوها وتلقوها باليمين ولو كانت تشويه الوجه او كشف العورة وما الى ذلك، اما الاسلام وءادابه وتربيته وتعاليمه فقد اصبح دبر الآذان منهم، وكذا التفكير فى اقامة نظام حكم اسلامى والرجوع الى دستور القرءان واحياء دولـة الخلافة، فانه يعد عندهـم من المستحيلات .

والعجب كيف نجح الاستعمار الفكرى فى بلاد الاسلام بعد زوال الاستعمار العسكرى فتجد شبـاب الاسلام والمنظمـات السياسية فى البلاد الاسلامية وكل العناصر المتحركـة تبشر بهذه المذاهب الجديدة وتسعى فى نشرها وبعضهم يستميت من اجل انتصارها وسيطرتها حتى انه ليقبل السجن والعذاب

فى سبيلها، لانه يرى انها سبيل الخلاص ووسيلة النهوض، ولا بعتبر بما ءالت اليه حال الشعوب الاسلامية والعربية من تاخر وانحطاط نتيجة اعتناق هذه المذاهب، وما نشأ بينها من نزاع وخصومات، بحيث استحكم الخلاف والفرقة، واستحال التقريب والتوفيق بين ابناء القطر الواحد كالشام الذى جزىء الى اربع دول والعراق الذى اصبح الاكراد فيه يطالبون بالاستقلال .

والادهى من ذلك كله، ان اعتناق بعض الحكومات لهذه المذاهب اوجد بينها وبين الشعب المسلم هوة سحيقة ابعدته عنها وافقدتها تاييده، بل صار يتمنى لها الخذلان والفشل فى كل ما تحاوله وتاتيه، ومن ثم كانت الهزيمة الشنعاء التى منيت بها الحكومات العربية امام شذاذ الآفاق من الصهاينة ، لان شعوبها لم تكن معها، ولان قواتها كانت موزعة بين الدفاع عنها ودفاع العدو، ولو كانت مطمئنة على نفسها لما احتاجت الى حامية تحميها .

وهذا بعض ما يسببه استيراد النظم والمذاهب الاجنبية التى لا تلائم طبيعة الشعب، ولا تمتزج بعقيدته وايمانه

وشعوره، واليك العبرة بالبلاد التى نشأت فيها هذه المذاهب ومنها تصدر الينا، فرنسا وهولاندا مثلا، واحداهما جمهورية والاخرى ملكية على رأسها امرأة، لو جعلت أمر القيادة العليا لجيشها فى يد اكثر السياسيين المعارضين لحكومتها تطرفا، وفتحت له خزائن بنك الدولة، وقلت له تصرف كما تريد، لما خطر بباله ان يدبر انقلابا على حكومة بلاده ولا ان يخذل جيشها فى حرب، ولاعتبر عرضك مساومة له فى ذمته واخلاصه ووطنيته! لكن عملاء المذاهب المستوردة عندنا ليسوا كذلك، فهم يسخرون انفسهم للاجنبى من حيث لا يشعرون، ويفشلون. لانهم ليسوا من الشعب ولا من عقيدته وامله وطموحه، وسيبقون كذلك الى ان ياتى الله بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما فعلوا نادمين.

والخلاصة ان هذه المذاهب ان كانت تصلح لاهلها الذين نشأت فيهم وانبعثت منهم فانها لا تصلح لنا ولا تعالج ما بنا من ضعف وجهل وانحطاط، وأن فى الاسلام ما يقاومها وينهض بنا ويغنينا عن كل استجداء واستعطاء. واذا كان الاستيراد من

هذا القبيل دليلا على التخلف والتبعية وانعدام الاصالة، فانه كمـا اثبتنـا مما يزيدنا بلبلة فكـر وضعف ايمـان ويفتـت وحدتنـا ويفـرق كلمتنـا ، ومـا بعد العيـان من بيـان .

الدِّيمُقراطيَّة

كلمة يونانية معناها حكم الشعب، فهى مذهب سياسى لا اقل ولا اكثر، ولعلها بذلك اخف المذاهب المستوردة ضررا، ولكن المسلمين خدعوا بها خداعا كبيرا ، وكانوا فى اوائل هذا القرن يتغنون بها كما يتغنى العاشق بمعشوقته، ولما كانت الثورة الفرنسية التى انفجرت على النظام الملكى سنة 1789 انما قامت على مبادىء هذا المذهب، فانها كذلك حظيت بتجميد المسلمين بل الشرقيين عموما، واصبحت هِجِّيرا كل كاتب وخطيب ومعلم .

وابتدأ العمل بتطبيق الحكم الديموقراطى فى دولة الخلافة العثمانية سنة 1908، وكانت ما تزال تحتضن بلاد العرب وبعض شعوب البلقان، وكان الاعتقاد ان سيادة الديموقراطية ستحمى هذه الدولة من التفكك، ولكنها لم تغن شيأ عن المصير المحتوم الذى كان مقدرا لها، فقد تتابعت الثورات فى تركيا نفسها على الخليفة عبد الحميد الثانى الذى كان ءاخر من حكم هذه البلاد بجد وحـزم، وفى بلاد البلقان، والبلاد العربية، وانتشر ذلك

السلـك ، وصارت تركيا دولة صغيـرة تحكم ظاهرا بالنظـام الديموقراطي، وواقعا بالديكتاتورية العسكرية التى نهج سبيلها أتاتورك بعدما الغى الخلافة واعلـن فصل الدين عن الدولـة، واعطى اعظم مثال على ان الديموقراطية خدعة سياسية لا غير.

وصار الامر فى البلاد العربيـة على هذا المنوال، مـن الديموقراطية المزعومة الى الديكتاتورية المفروضة، مما ادى الى عديد من الانقلابـات السياسيـة والعسكرية ، وانعـدام الاستقرار بتاتا، ولا سيما بعد قيام دولـة اسرائيل فى هـذا العهد الجديد الذى طالما تغزل به الكتاب والشعراء ..

ونظن ان فشل هذا المذهب فى تحقيق الاصلاح المنشود، بسائر البلاد الاسلامية، يغنينا عن التعرض له، ولكن لابد مع ذلك من وضع بعض البصمات على مواطن الضعف فيه، وخاصة بالنظر الى نظام الحكم الاسلامي، للتقليل من حماسة المبشرين به، وزعزعـة الثقة التى يوليها اياه الدعاة الذين ما يزالون مخلصيـن لـه .

ان المبدأ الاساسى الذى يقوم عليه هذا المذهب، هـو

ان الشعب مصدر السلطة بجميع انواعها، من تشريعية وقضائية وتنفيذية، واول ما يصطدم هذا المبدأ بما تقرر فى الشرع الاسلامى من انه لا حكم الا لله، فالمشرع فى جميع الاحوال هو الله عز وجل على لسان رسوله المبلغ عنه، كما جاء فى الآية الكريمة (إِنِ الحكم الا لله) .

وقد اشتمل الوحى من القرءان الكريم والسنة الثابتة على إصول الاحكام وقواعد التشريع فيما يتعلق بالعبادات والعادات والمعاملات، وما لم يذكر فيهما نصا يوخذ منهما بطريق القياس على ما ذكراه ، كما يستفاد من قوله تعالى (واطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم، فان تنازعتم فى شىء، فردوه الى الله والرسول، ان كنتم تومنونَ بالله واليوم الآخر، ذلك خير واحسن تاويلا) فامر بالرد الى الله والرسول اى الى الكتاب والسنة، وما استنبط منهما من احكام بالنص او القياس، ولم يقل فردوه الى الشعب، فالشعب لا يعتبر مصدر تشريع فى الاسلام .

ثم ان حكم الشعب فى هذا المذهب لا يعنى باعتراف

اصحابه الاجماع الشعبى، لانه امر يكاد يكون مستحيلا، وانما يقصد به حكم الاغلبية، وقد اصبح من المسلم به، ان هذه الاغلبية ايضا انما هى اغلبية نسبية، وذلك ان التنظيمات الحزبية التى تعمل على تطبيق هذا الحكم غالبا ما تتعارض، فالذى يحصل منها على اغلبية الاصوات هو الذى يحكم، ويبقى التنظيم الحزبى المعارض له خارجا عن الحكم، ثم ان هناك الاكثرية الكاثرة من الشعب، التى لا تنتسب الى اى حزب من الاحزاب، فهؤلاء كلهم يكونون خارج الحكم، وعليه ضدا كما هو المشاهد فكيف يقال: ان هذا الحكم حكم شعبى ولو بالاغلبية ؟..

وقد يخطر فى البال مسألة الاجماع فى أصول الفقه الاسلامى، ويشتبه الامر فيها بالاجماع الشعبى الذى قلنا انه مستحيل، وللفرق بينهما وازالة الالتباس، نقول ان الاجماع الذى هو احد ادلة التشريع فى الاسلام، لا يعنى كذلك الاجماع الشعبى لكونه مستحيلا فقط، ولكن لكونه لا تتحقق به المصلحة الحقيقية، لان عامة الشعب انما تتبع الهوى وما يخف على النفس من دواعى الباطل، فحكم الاكثرية العددية فيه ملغى،

ولكنه معوض باكثرية نوعية، اذ هو اتفاق علماء العصر على حكم الحادثة، او اتفاق مجتهدى الامة فى عصر على امر ما(1).. وشتان ما بين اتفاق علماء الامة واتفاق جهلائها ان امكن اتفاقهم ، ولا سيما فى قضية الحكم والسياسة .

وانظر الى أمر الامة على عهد ابى بكر وعمر، لما كان يُرد الى مثل عثمان وعلى وطلحة والزبير وابى عبيدة ولما صار الى أيدى الغوغاء من عامة الشعب اواخر ايام عثمان ومدة خلافة على رضى الله عنهما. وهذا هو ما حصل فى بلاد الاسلام لما اعتنقت الحكم الديموقراطى ظنا منها بانه سبيل الخلاص، فاصبح الجهال والانتهازيون يصرفون شؤون الشعب ويشرفون على مقدرات الدولة، فلم تزل تنزل من درك الى درك، حتى صارت الى ما هى عليه الآن.

---

1) التعريف الاول للجوينى والثانى للسبكى.

الاشتراكية

كانت الديموقراطية هي مزلقة الشعوب الاسلامية والعربية بالخصوص نحو الاشتراكية. ان هذه الشعوب بعد يقظتها البطيئة جعلت تبحث عن الوسائل التي تسترجع بها عزها وكرامتها، ولما لم تجد في الديموقراطية بغيتها مع ما كانت تعلقه عليها من ءامال عراض، تحولت تحت ضغط الديكتاتوريات التي نشأت فيها، الى الاشتراكية، ولم يكن بد من ذلك، لانها جربت الديموقراطية وفشلت في تجربتها. وكانت قد استبدلتها بنظام الاسلام، فلم يبق امامها الا الاشتراكية، لا سيما وقد قامت لها في الثلاثينات فما بعدها، دعاية واسعة النطاق، على اثر التقدم العلمي الذي احرزته دولة الاتحاد السوفياتي، وهي الدولة الاشتراكية الاولى في العالم.

واذا كانت الاشتراكية اكثر من نظام سياسي، فانها سرعان ما ظهرت لها ردود فعل قوية في البلاد الاسلامية، هذه البلاد التي ما تزال الفكرة الدينية سائدة فيها ومتغلغة في نفوس ابنائها، فلم يكن من الممكن زعزعة عقيدتهم في وجود

الله، ورسالة الانبياء، ومزاولـة الشعائر الدينيـة، والخضوع للقانون الاسلامى على الاقل فى الاحوال الشخصية التى لم يمسها النظام الديموقراطى ، وان عطل التعامل وفق القوانين المدنية والجنائية الاسلامية .

ومن الحق القول بان الاشتراكيـة التى تعارض التديـن وتشكل نظامـا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا هى ما يسمونـه بالاشتراكية العلمية او الماركسية نسبة الى مؤسسها كارل ماركس ، وليست الاشتراكية الديموقراطية التى هى نظـام سياسى واقتصادى فقط، يسود فى اكثر من بلد اوروبى ولا يتنكر للعقيدة الدينية، بدليل وجود كثير من الاحزاب السياسية الاوروبية التى تحمل وصف الحزب الاشتراكى المسيحى، كما ان احزابا أخرى تحمل وصف الحزب الديموقراطى المسيحى ولكن الواقع ان الفرق بين المذهبيـن، الاشتراكية العلمية ، والاشتراكية الديموقراطية ليس كبيـرا جدا حتى يستطيـع السواد الاعظم من الناس التمييز بينهما، واذا كان من المحتمل قيام حكم اشتراكى ديموقراطى فى البلاد الاوروبيـة باسناد

أحزاب اشتراكية تنعت نفسها بالمسيحية، فلأن المسيحية كما هي عند اتباعها اليوم مجرد عقيدة دينية، لا شريعة ونظام حكم كما هو الاسلام .

ومن اجل ان هذا الخيط الرفيع الذى يفصل بين الاشتراكيتين عسير الادراك ، فان الاشتراكية الديموقراطية كثيرا ما تكون مزلقة نحو الاشتراكية العلمية اى الماركسية او الشيوعية بعبارة اوضح، ولذا نجد كثيرا من الدول الرأسمالية الغربية تحارب الاشتراكية مطلقا خشية الوقوع فى محاظيرها. وعندنا بخصوص البلاد الاسلامية تجربة اندونيسيا التى لم تلبث ان انجرفت نحو الشيوعية، لولا ان تدراك الامر ، المخلصون من ابنائها .

وفى البلاد العربية التى اتخذت من الاشتراكية شعارا، لم ينشب الحكم ان اصطدم بالعناصر الحية من ابنائها، دعاةَ اصلاح، وقادةَ فكر، وهيآتٍ اسلامية، ومنظماتٍ سياسية، فضلا عن رجال الاقتصاد والاعمال والفلاحين والعمال انفسهم، لانهم حاولوا السيطرة على الجميع، وتوجيههم فى الخط الذى رسموه

بدون استشارة للشعب ولا اخذ برأيه، فصارت هذه البلاد تتراجع يوما فيوما عما كانت عليه من التطور والنهوض، وخيم البؤس والشقاء على ابنائها فتشردت النخبة المفكرة منهم فى البلاد التي سلمت من هذه العاهة، وانطفأت تلك الشعلة التى كانت تبعث الحماس فى النفوس لبناء الوطن العربى، واحلاله المحل اللائق به بين البلاد الراقية .

وشعر بعض القادة بالانحسار أمام المد الشعبى الاسلامى الذى لا يبغى بدينه بديلا، فمنهم من تراجع شكليا ودعا الى اشتراكية رشيدة قصد اصطلاح بعض الاخطاء، ومنهم من اخترع اسم الاشتراكية الاسلامية للتغرير بجمهور الشعب المسلم، ولم يعدم من الخدام والانصار ومن المتطوعين لاحتضان كل جديد، من يتلمس له الجذور والاصول لدعواه هذه، فى تعاليم الاسلام ونصوصه واقوال علمائه .

ولعل ابرز وجه يقدمه دعاة الاشتراكية الاسلامية هو ابو ذر الغفارى الصحابى الجليل الذى قال فيه النبى (ص) ما أظلت الخضراء ولا اقلت الغبراء من ذى لهجة اصدق من ابى

ذر، فيجعلونه اول اشتراكى فى الاسلام ويحتجون به على وجود
اصول الاشتراكية فى الدين الحنيف. وهو (ض) كان يحمل
الرّغَائب محمل العزائم، ويدعو الى انفاق ما زاد على قوت
المرء فى يومه، ويطوف على الناس قائلا : بشر الكانزين بنار
تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، رافعا بها صوته، مع ان
الآية جاءت فى مانعى الزكاة ، وقد كان يجتمع عليه الفقراء
معجبين بقوله، فخشى عثمان (ض) ان يحدث فى الدولة شغب
بسببه، فمنعه من ذلك، ولما لم يمتنع نفاه الى الربذة قرية
بقرب المدينة فبقى فيها حتى مات .

ان احدا من الصحابة رضوان الله عليهم لم يتابع ابا ذر على
مذهبه، والذى حدث ان العرب لما امتنعت عن دفع الزكاة، قاتلها
ابو بكر (ض) وقوفا مع الفقراء فى استخلاص حقهم، ولما اراد
الفقراء ان يتعدوا الحد بزعامة ابى ذر ، او خيف منهم
ذلك، منع عثمان، وهو ثالث الخلفاء الراشدين، اباذر من التمادى
فى دعوته ، وقوفا مع الاغنياء، فى حماية اموالهم .

والمال من الكليات الخمس التى جاء الاسلام وسائر الملل
بحفظها وحمايتها .

على ان ابا ذر كان قد ظهر منه بعض هذا الميل فى عهد الرسول (ص) او ذلك على الاقل ما رواه هو حين قال جاء فقراء المومنين الى النبى (ص) وشكوا اليه ما يجدونه من حسرة حين يرون الاغنياء يتصدقون بفضول اموالهم ولا يجدون هم ما يتصدقون به، فدلهم على التسبيح والتحميد والتكبير دبر كل صلاة، وقال لهم ان ذلك يقوم مقام الصدقة قال فسمع الاغنياء بذلك ففعلوا مثل فعلهم، فجاء الفقراء مرة اخرى الى النبى (ص) واخبروه بفعل الاغنياء فقال: ذلك فضل الله يوتيه من يشاء ؛ وهذا بدون شك انكار منه (ص) لهذه المنافسة بين فقراء المومنين واغنيائهم .

نحن لا نقول بعدم العمل بالرغائب، ولكننا نستنكر ان يوخذ برأى فرد من افراد الامة فى جعلها عزائم، ويتجاهل اجماع المسلمين على خلاف هذا الرأى، فيحارب التمول باسم الاسلام، وتنكر الملكية الفردية او تحدد، باسم الاسلام، ويبحث عن جذور الاشتراكية فى مثل قوله تعالى (وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) وقوله (وءاتوهم من مال الله الذى ءاتاكم) علما

بان مقام الترغيب يدعو لاستعمال مثل هذه التعابير، ولكنه لا يعدها مُلزِمة، والا لما قال فى ءاية اخرى (مثل الذين ينفقون اموالهم فى سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل، فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء) وقال فى ءاية ثانية (ولا تاكلوا اموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتاكلوا فريقا من اموال الناس بالاثم وانتم تعلمـون) فالاولى ترغيب كاللتين قبلها، والثانية تشريع، وفى كليتهما عبر باموال مضافة الى المعنيين بالامر على سبيل التمليك لا على سبيل الاستخلاف او التصرف فقط، وان كان الكل منه عز وجل. والآيات فــي هذا المعنى كثيرة فلا نطيل بها .

والمقصود انه ليس فى رأى ابى ذر حجة، ولا فى ظواهر بعض الآيات دليل على ما يقوله الذين ينسبـون الاسلام الـى الاشتراكية او ينسبون الاشتراكية الى الاسلام، فالاسلام اسمى واجل من ذلك، وهو يتعارض ومبادىء الاشتراكية الاساسية ، ديموقراطية كانت او علمية فى اكثر من خط، واكثر من قاعدة، ولم يات الاسلام ليذوب فى غيره من المذاهب، بل اتى ليصحح

خطأ المذاهب، ويقيم زيغهـا وذلك بالنسبة الى الاشتراكيـة او غيرها .

واستحدث ثلة من العرب، وخاصة المسيحيين ، بعض المذاهب كالقومية بالمعنى الحزبى الخاص، والبعثية، وهـى مذاهب منقولة عن الاشتراكية الماركسية، قصد بها ابعاد العرب عن الدين بعامة والاسلام بخاصة، مع اقامة نظام حكم عنصرى متعصب، ولا نحتاج ان نتعرض لهذه المذاهب، فانما هى نسخة محرفة عن الشيوعية، وحيث لم ينجح الاصل فان النسخة قطعا لا يكتب لها نجاح .

وما نريد ان نلح على ان التقدم العلمى الذى حصل فى الاتحاد السوفياتى، ليس راجعا بالذات، الى قيام الاشتراكية فى هذه البلاد، والا فلماذا لم تحصل الشعوب الاخرى والبلاد التى تسبح فى فلك الاشتراكية، ومنها بعض البلاد العربية على نفس النتيجـة ؟

الرأسمالية

توهم بعض الناس من حماية الاسلام للملكية الفردية ، ان نظام الاقتصاد فى الاسلام نظام رأسمالى، وربما يتوهم بعضهم من نفينا لان يكون الاسلام يجامع الاشتراكية، انه لا يتنافى مع الرأسمالية .

وكلا الامرين خطأ بين، فانه لا يلزم من حماية الاسلام للملكية الفردية ان يكون رأسماليا، ان الاسلام يحمى الملكية الشرعية المستفادة من الكسب غير المدخول، المبنى على الضرر والاذى، كاستغلال جهود العمال، وبخس الناس اشياءهم. ومن ثم حرم القراض فى السلع والعرُوض، وجعله فى المال خاصة، ولم يجعل على العامل فيه ضمانا ، وحرم الصرف بالتأخير، وحرم تطفيف الكيل والميزال فى البيع، واستيفاءهما فى الابتياع، وحرم الغش والغرر، وحرم الغبن، وجعل للمغبون الحق فى القيام على غابنه، الى غير ذلك مما يجرد الكسب من كل صفة نفعية تحللية، والا فانه لا يُقره، وبالطبع لا يحمى الملكية الناشئة عنه.

ويحرم الاسلام الاحتكارات بجميع انواعها، والاستثمارات الواسعة التى تستخدم المصالح العامة، وهذه فى النظام الرأسمالى غير ممنوعة، بناء على قاعدة دع الامور تسير .

ويمنع الاسلام التعامل بالربا، واخذ الفائدة واعطاءها ، منعاً باتا لا هوادة فيه، سواء كانت القروض استهلاكية او انتاجية، ارتفعت الفائدة او انخفضت، فكيف يتصور حمايته للاموال والثروات والملكية الحاصلة من هذا الوجه ؟ ..

ومعلوم ان النظام الاقتصادى الرأسمالى انما يقوم على المعاملات الربوية، والقروض المصرفية، والدولية التى لا تخلو هى ايضا من اشتراط الفائدة، قلت او كثرت، وبذلك اتسعت مجالاته وعظمت موارده، ولكن على حساب الطبقات العاملة والفقيرة، فتكدست الثروة فى ايدى جماعة خاصة من المستغلين، وساء توزيع الدخل العمومى، فبينما تجد فئة قليلة من الناس تكاد لا تحصى ثروتها، تجد عامة الشعب لا تحصل على بلاغ من العيش، وهذا من اعظم الفوارق بين الرإسمالية والنظام الاقتصادى الاسلامى .

وفضلا عن ذلك، فان الاسلام يتدخل بصفة قانونية منتظمة، لفائدة الفقراء والمجتمع، فى كل ثروة خاصة بلغت حدا معينا لا يتجاوز فى النقد مأتى درهم او عشرين دينارا، فيقتطع منها مبلغا محددا بحسب نوع الثروة من فلاحة أو أو مال ناض، يسمى زكاة، ويصرف فى مصالح الفقراء وقضايا التحرير وديون العاجزين والانفاق على المنقطعين والمنشآت الدينية والعمومية. وذلك عن رأس كل سنة، ومن غير تمييز بين رأس المال وربحه، ان كان له ربح، وهو تدخل لا يستطيع احد ان يقول انه يجارى الرأسمالية بحال .

ولن يحتاج الى اطالة التفكير ان الاسلام ليس رأسماليا، كما أنه ليس اشتراكيا، لان الرأسمالية والاشتراكية اذا كانا مذهبين متقابلين، فان الاسلام غيرهما معا ولا يقابل مذهبا منهما على انفراد، ولذلك لا يلزم من نفى صفة الاشتراكية عنه ان يكون رأسماليا. وانما يقع هذا فى وَهَل من اعتاد ان يقابل الاشياء باسمائها ولو كانت هذه الاسماء، انما وضعت عليها جزافا ولا تدل دلالة مطابقية على معناها وحقيقتها .

وهذا ما يجعلنا نستنكر وصف الاسلام بالديموقراطى والاشتراكى، لانه يوقع الأغرار فى هذا التوهم، فيأتى من ينال منه ويصفه بالرأسمالى ومن يصفه بالشيوعى، وهلم جرا. ولانه انتقاص له وتقول عليه، فلو وصفت الاشتراكية او الديموقراطية بالاسلامية لكان فى ذلك افتيات على الاسلام وبخس له، فكيف وقد رأينا انه الرائد السباق فى مضمار العدالة الاجتماعيةوالحكم والتشريع ، يوصف بالديموقراطى او الاشتراكى ؟

الوُجُوديَّـة

لم نتعرض للمذاهب الفلسفية والعقلية، لان هذا الكتاب ليس المراد منه الحوار والمباحث الفكريـة، باستثناء مذهـب الوجودية الذى اتخذه بعض الشباب عقيدة وسلوكا، فانحرفوا به عن الجادة، وكان مدرجة لفئة منهم الى الالحاد والاباحية .

ومعلوم ان الوجودية مذهب فلسفى حديث، يتفرع الـى مدارس مختلفة، منها المومن ومنها الملحد. فهى عند كيركجاد الذى يعد بحق ابا الوجودية، فلسفة قائمة على ان قلق الانسان يزول بالايمان بالله، ومن ثم عرفت مدرسته بالوجودية المسيحية. وكان كيركجاد يرفض المذاهب الفلسفية القديمة والجديدة ، ويعادى الفلاسفة العقليين بالخصوص، وهو وان اختلف مـع الكنيسة، فانه لم يعارض الدين، وكتب فيه ابحاثا ذات نزعـة صوفية، وكان يرى ان المعرفة الحقيقية تنبع من داخل النفس .

ولكون الوجودية انصرفت الى البحث عن الوجود الانسانى واتخذته منطلقا لتفكيرها الفلسفى بدلا من ان تنطلق من الكون العام او الطبيعة كما هو الشأن فى الفلسفات الاخرى، سميت

بالوجودية ، فالبداية كانت حسنة، وهى حرية ان تؤدى بالانسان الى معرفة نفسه، وبمعرفتها يعرف خالقه، ففى القرءان الكريم حثا على تفكير الانسان فى نفسه: (وفى انفسكم افلا تبصرون) وورد فى الاثر : «من عرف نفسه عرف ربه» وهذه كانت هى النتيجة التى وصل اليها مؤسس الوجودية كيركجاد كما المعنا لذلك .

غير انه بدت فى الافق الذى يحيط بوجود الانسان والبحث عنه، فلسفة وجودية ملحدة، تنتمى الى مدرسة سارتر، وهو فيلسوف فرنسى معاصر ، يرى ان الوجود عبارة عن مجموعة من الظواهر ليس وراءها شىء، فهو لا يستطيع ان يفسره، كما يفعل الفلاسفة الآخرون، وانما يصفه كما هو، ولذلك كتب عدة روايات اهتم فيها بالتحليلات النفسية وتصوير الطبيعة البشرية، وابرز ما يسيطر على تفكيره النزعة العدمية والتشاؤم، فالانسان حر فى اختياره، ولكن ارادته تتصادم مع ارادة الآخرين، فهو يعيش فى جو من الصراع والفشل، وكيانه ممزق من الداخل، وليس لوجوده علة تبرره، ولا مدد خارجي

يرفده ، فالقلق والامتعاض يطبعان حياته، والغاية هي العبث والغثيان .

ان من المؤسف ان هذه الوجودية الملحدة هي التي انتشرت بين بعض الشبان المسلمين، عمل على انتشارها ما نقل من كتب سارتر الى اللغة العربية، وهي كتب تتخذ اسلوب الرواية والقصة، فتروج كثيرا، وتبث سمومها في النفوس من طريق غير مباشر، وزاد في الطين بلة ما يغمر العالم اليوم من موجات وتيارات فكرية هدامة، يكون الشباب اول ضحاياها، لا سيما مع فقدان التربية الدينية، فقد غبر زمان كان التعليم الديني فيه بفلسفته واخلاقه، يسيطر على دروس التربية، وكانت القدوة الحسنة من رب الاسرة والاستاذ وافراد المجتمع، توجه الجيل الصاعد وجهة محمودة، فكانت هذه المشكلة لا وجود لها . اما الآن فقد تبدلت الحال، وألقي الحبل على الغارب، وصارت الكتب الخليعة، والصحف المشبوهة، والسينما بعجرها وبجرها، هي التي تكون الشباب، وتخرجه على النحو الذي يريده دعاة المادية والانحلال .

وقد يكون كافيا فى التحذير من الاغترار بهذه الوجودية الملحدة، ما يصفه زعيمها سارتر فى كتبه من مظاهر الفساد والتفسخ التى تميز مجتمع الوجوديين ، واستهتار ابطال رواياته الذين يضربون عرض الحائط بكل القيم والمثل العليا، فمتى كانت الفلسفة اباحية مطلقة، وسكرا وعربدة، وتسكعا وثرثرة؟ واين وقار الفلاسفة وسمتهم، وزهدهم وعفتهم؟ فهل مُسخت الفلسفة هى ايضا كما مسخ الفلاسفة من طراز مدرسة الوجودية ؟

انا اعلم ان الوسط الماجن المتحلل الذى تعيش فيه شخصيات سارتر، ونماذجه البشرية المتخيّرة ، كما تعرضه علينا رواياته وقصصه، هو من صنع الخيال وابتكار الفن، ولكنه بلا شك يعكس صورا من الواقع، وظلا من الحياة التى يحياها الكاتب ورفاقه ورفيقاته، ومن اين للقارىء البعيد عن هذا الوسط، الشاب الذى ليس له ثقافة ، الطالب الناقص المعرفة، ان يميزوا بين الخيال والواقع، ويتجنبوا السقوط فى هوة هذه الاباحية المكشوفة ، ان سلموا من البلبلة والشك والالحاد ؟

ولعل الفساد والاسراف على النفس والتنكر للاخلاق والمسلّمات، لم تشع في عصر كما شاعت فى عصرنا هذا، لانها اصبحت مُسَرَّرة وذات فلسفة تدعو لها، وقد كانت فيما قبل حتى عند الذين تشيع فيهم، جرائم اجتماعية، يُتَستَّر بها، ويشعر اصحابها بوخز الضمير مما يجعلهم يتسارعون الى التوبة ويعلنون بالندم على ما فات .

وهذا هو المهم فى الامر، فانا لم نذكر الوجودية لنناقشها كفلسفة، لان هذه المناقشة محلها فى فصول المدارس وقاعات الكليات، وانما ذكرناها لنبرز الفرق بين اخلاقية الاسلام وما اغرقت هذه الفلسفة فيه شبابنا من أوحال واقذار ..

ان الاسلام الذى حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وجعل التظاهر بالمعصية زيادة فى اثمها، والمخالفة الصغيرة تصير كبيرة بالاصرار عليها، انما هدفه ان يبنى مجتمعا نقيا، شعاره الطهارة، وعدم الاثارة، ولذلك امر النساء بعدم ابداء زينتهن الا لمحارمهن، والرجال بغض ابصارهم وحفظ فروجهم، وسمى الخمر أم الخبائث، والقمار رجسا من عمل الشيطان ،

وتوعد على ارتكاب هذه الموبقات بظهــور الاوجاع والامراض المادية والمعنوية التى لم تكن فى المجتمع الاسلامى من قبل ، وها هى قد ظهرت بالفعل، ووضعت المسلمين امام اختيارهم، فهل يختارون الاسلام من جديد، ام ينقادون فى حبل هــذه المذاهــب المعاصــرة ؟

تفتّح الإسلام على الأفكار النافعة

ربما يخطر بالبال، وقد رأينا معارضة الاسلام لهذه المذاهب ، انه دين منغلق فى وجه الافكار النافعة، غير قابل للتطور الذى يواجه الانسانية فى الحياة العامة يوما بعد يوم ، مع اننا نقول انه نظام ومنهج للحياة بجانب كونه عقيدة وشعائر تعبدية، وأى نظام أو منهج للحياة لا يتأثر بما يجدّ من أحوال ويحدث من امور ؟..

ولتبديد هذا الخاطر نبين اولا: انه لا يلزم من معارضة الاسلام للمذاهب المذكورة انه دين منغلق، فليست هذه المذاهب هى كل الافكار الانسانية والمناهج الحياتية حتى تكون معارضتها معارضة للتطور وسدا للباب فى وجه التجدد والانفتاح. ولو قلنا بهذا الرأى للزم تلك المذاهب من باب اولى واحرى ، لا سيما وفيها ما لا يقبل وجودا لغيره معه، وما فُرض بالقوة على الناس، وحيل بينهم وبين الاتصال بمن لا يخضعون له، حتى اصبح من المالوف القول بان اتباعه يعيشون من وراء الستار الحديدى .

وثانيا : ان من اكبر الادلة على بطلان الانغلاق المزعوم، تلاقــى الاسلام وهــذه المذاهب ذاتها فــى بعض النظريــات والتشريعات، حتى ادعى كثير من المفتونين بها انها والاسلام سواء، فصاروا يصفون الاسلام بالديموقراطية او الاشتراكيــة مثلا على حسب ما المعنا اليه فيما سبق، فهل يجب ان يذوب الاسلام فى هذه المذاهب ويقبلها بِعُجَرِها وبُجَرِها ليكون غير منغلق ومتجددا ومتطورا ؟ وماذا يبقى منه اذن ليكون منهجا مستقلا ونظاما قائما بذاته مثل باقى المناهج والانظمة الاخرى؟

وفوق هذا وذاك فقد علمنا ان الاسلام عقيدة وشريعة ، والعقيدة تشمل الشعائر التعبديــة ، والشريعة تشمل قواعد السلوك والاخلاق.

ونبادر فنقول ان العقيدة فى الاسلام لا يعتريها تبديــل ولا تغيير، فهى جاءت لانقاذ البشر مما كانوا يتخبطون فيه من ظلمات الشرك والالحاد، وتصحيح الاخطاء التى وقع فيها اتباع الديانات السماوية قبلها، بسوء الفهم او التاويل الذى يخضع للمصالح الشخصية، فهل يراد من الاسلام ليكون غير منغلق

ان يرجع فى حافرة الجاهلية الاولى، فيعـدد الآلهة وينبـذ التوحيد؟ او يراد منه ان ينكـر الخالق عز وجل والوحـى الى الانبياء والرسل والبعث والحساب والجنة والنار؟ وهل التطور المطلوب منه هو ان يضع حدا للشعائـر التعبدية، فيلغـى الصلاة والصيام والحج، أو يقتصر على صلاة واحدة فى يوم من ايام الاسبوع كالجمعة مثلا، على غرار ما فعل النصارى مـن اقتصارهم على صلاة يوم الاحد، ويقتصر كذلك على صيام يوم واحد فى السنة بدل شهر رمضان، أو يجعل الصيام امساكا عن الاطعمة خاصة لا يشمل الشرب والتدخين وبعض الاكلات الخفيفة كما جعله بعض اتباع الاديان الاخرى ؟

ان الاسـلام فى هذا الباب حقيقـة لا يقبل التطـور ، ولا يمكن ان يقبله ، والا فقد روحه وخصائصه المميزة له ، بصفته رسالة الهية الى البشر وءاخـر الاديان السماوية التى تهديهم الصراط المستقيم .. وهو اذا كان دينا حقا قامـت الادلة على صحته عقلا ونقلا، فان قبول بعض احكامه دون بعض، يعد رفضا لها جميعا، وتغيير ما اتى به من عقائد وشعائـر

تعبدية يكوا كفرا وليس تطورا، لان الله عز وجل لا يتطور، فيكون فى زمن ما، الها واحدا قادرا مريدا عالما ليس كمثلـه شىء وهو السميع البصير، ثم يكون فى زمن ءاخر ثالث ثلاثة او ما الى ذلك من العقائد الباطلة، كما ان اوامره الصريحـة الواضحة لا تقبل التاويل والتحوير فالصلوات خمس كما فرضت وصلاها النبى (ص) والصحابة وجميع الامة والصيام شهـر كامل هو رمضان من الشهور القمرية، وعلى الصفة التى صامه بها السلف الصالح والرسول الذى بلغنا اياه عن الله، فمن بدل فى ذلك او غير ، فهو يحدث من تلقاء نفسه دينا ءاخر غير الاسلام (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه).

واما الشريعة فمنها أصول وفـروع، ومنها ما يتعلـق بالاحكام العملية وما يتعلق بـالسلوك والمجتمع . . فالاصول لا تبديل فيها ولا تغيير، والاحكام ما كان نصا ظاهرا لا غموض فيه كتحريم المعاملة بالربا وشرب الخمر ونحو ذلك، فهذا لا يتغير اليوم ولا غدا، وتغييره تغييـر لشرع الاسلام وايمـان ببعض الكتاب وكفـر ببعض ، والفـروع ونريد بها الاحكـام

الاجتهادية،، هذه ان لم تكن اجماعا، فانها تقبل التغيير وتتطور بحسب الزمان والمكان ، وتفتح قواعد الاسلام صدرها لكل ما جد او حدث فيها، فتضع له الحكم الذى يتطلبه مراعية فى ذلك سماحة الدين ونفى الحرج عن الامة.

ولعلنا بهذه النظرة السريعة التى القيناها على العقيدة والشريعة فى الاسلام، وهما لب الدين وجوهره، قد بينا ان الدين الحنيف ليس دينا منغلقا ولا عدوا للتطور، كيف وهو قد قرر مجاراة العادات والاعراف فى احكامه عن طريق الاجتهاد والقضاء، وذلك نهاية التفتح ورعاية المصالح العامة فى التشريع الذى يعد من صميم الدين .

بقيت معنا العلوم والفنون والصنائع والتقنية(1) الحديثة وسائر الافكار النافعة، وهذه لا قائل بان الاسلام يعارضها ، وموقفه منها امس واليوم معروف، فقد احتضن المسلمون فى عصورهم الاولى علوم يونان وفارس والهند وثقافتها وفنونها، ونقل منها الى اللغة العربية كل مفيد نافع ، وهذبها واضاف

(1) التقنية تعريب التكنولوجيا .

اليها ما قام علماء الاسلام باستكشافه من الاراء والنظريات سواء فى علوم الطبيعة او الكيمياء او الطب او الرياضيات، ناهيك بما احدثوه فى علم الجبر من قواعد واصول حتى اعتبروا هم الواضعين له، وحمل اسمه العربى فهو يعرف به فى جميع اللغات، وقيل مثل ذلك فى الفلك والجغرافية والهندسة، وحسبك ان معظم الكواكب والنجوم انما تعرف فى سائر اللغات باسمائها العربية .

وقد نشأ عن هذا التفتح على دنيا العلوم والافكار الجديدة فى البلاد الاسلامية، نهضة علمية وحضارة اسلامية لم يعرف لها التاريخ مثيلا فيما قبل. وكانت هى السبب فى يقظة اوروبا واطلالها على عالم الفكر والتجارب العلمية وقيام الحضارة الغربية السائدة الآن. وذلك بالاحتكاك الذى حصل بين الاوروبيين والمسلمين فى الشرق ايام الحروب الصليبية، وفى المغرب باسبانيا وصقلية اللتين كانتا على عهد الحكم الاسلامى منارتين عالميتين تشعان بانوار المعرفة والحضارة والتقدم والعمران .

ان الاسلام منذ ايامه الاولى لم يوصد الباب فى وجه

الافكار النافعة، فقد ثبت ان النبى (ص) كان يحب موافقة اهل الكتاب فيما لم ينزل عليه فيه شيء، وانه لما قدم المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، ويقولون هو يوم نجى الله فيه نبيه موسى من فرعون فقال نحن احق بموسى منكم، وصامه وامر بصيامه. ولما هاجمت الاحزاب المدينة، حفر الخندق حولها باشارة من سلمان الفارسى ولم تكن العرب تعرفه قبل ذلك .

ومن الثابت انه لما اخترع النور الكهربائى كان المسلمون اسرع الى الانتفاع به وادخاله الى المساجد، فى حين بقى كثير من رجال الكنيسة متعصبين ضده ولم يقبلوا ادخاله الى الكنائس كأنه رجس من عمل الشيطان .

فها نحن اولا، نرى ان الاسلام ليس ضد الافكار النافعة كما يتوهم بل هو يرحب بكل ما فيه فائدة ومصلحة للعموم ، ويتفتح على جميع النظريات والآراء الجديدة، بشرط ان لا يكون فيها هدم لقواعده واصوله، ولا نظن ان هناك مذهبا من المذاهب فضلا عن دين كبير كالاسلام لا يشترط هذا الشرط فى تعاطفه مع اى فكرة او نظام .

قوة الاسلام نابعة من اصالته وريادته

لقد جرب المسلمون كل المذاهب والنظم فى نهضتهم الحديثه، اعتقادا منهم او مجرد ظن، بانها اساس تقدم الغرب ورقيه، كما اشرنا الى ذلك من قبل، ولكنها لم تغن عنهم شيأ، بل عرقلت نهضتهم وفرقت كلمتهم، وذلك ما جعل بعض مفكريهم يولون وجههم شطر الاسلام ويدعون الى نبذ كل ماعداه .

والواقع ان فى العالم الاسلامى اليوم مدا كبيرا وقـوة شعبية هائلة تقول بالرجوع الى الاسلام من جديد، ولا ادل على ذلك من مقاومة التجربة الشيوعية فى اندونيسيا، وردود الفعل العنيفة التى ظهرت فى تركيا ضد العلمانية كما يقولون او اللادينية بالتعبير الواضح، وتركيا على ما هو معلوم هى التى فصلت الدين عن الدولة قبل كل بلد اسلامى وبها اقتدى الجميع.

ان هذا الواقع ان دل على شىء، فانما يدل على ان الاسلام قوة لا تقهر، وان كل المخططات التى وضعت للقضاء عليه ، وبعضها مما وكل تنفيذه الى ابنائه. والبعض الآخر مما تولى تنفيذه خصومه واعداؤه، تارة بالقوة والتحكم وتارة بالسياسة واللين، قد ذهبت ادراج الرياح، وظهر خبيثها للعيان .

فقد كانت مناهضة الاسلام كعقيدة وشريعة ونظام هى الظاهرة البارزة فى كل ما يقال ويكتب، اثر الانقلاب التركى، فى الثلاثينات وبعض الاربعينات ، من عقود القرن العشرين الميلادى ، ونادرا ما كان يبرز مقال او كتاب فى الذود عن الاسلام ورد المفتريات عليه، وكان المسلم الغيور يطالع واجهات المكتبات العمومية فقلما يقع بصره على كتاب او رسالة صغيرة فى موضوع اسلامى من الانتاج الجديد. ولكننا الآن، نكاد لا نرى فى واجهات المكتبات الا كتبا اسلامية جديدة تتناول مختلف المواضيع العقائدية والتشريعية والاخلاقية من وجهة نظر الاسلام، باقلام قادة الفكر واساتذة الجامعات فى العالم الاسلامى .. هذا فى الناحية النظرية ، وفى الميدان العملى كان استقلال الجزائر وتخلصها من براثن الاستعمار العسكرى والسياسى والفكرى بعد قرن وثلث، وعودتها الى حظيرة العالم الاسلامى تبنى وتنشىء وتسهم فى دعم نهضته الكبرى، حدثا تاريخيا عظيما اثبت للملاحظين ان الاسلام لم ينهزم، وانه برغم ما توالى عليه من الضربات الشديدة، لم يزل يحتفظ بتلك

القوة الهائلة التى قهر بها الصليبيين والتتار، وآخيرا المستعمرين الجبابرة من دول الغرب المسيحي .

فمن اين تنبع قوة الاسلام هذه التى تحدّت كل القوات المعادية لها، من مادية ومعنوية ؟

ان الاسلام دين الله الذى ارتضاه للبشر، واوحاه الى انبياءه ورسله، من لدن ابراهيم عليه السلام الى محمد (ص)، وهو بهذه الصفة وحدها حريّ ان يتغلب على كل معارضة، ويقاوم التحديات من اى نوع، لان قوتـه مستمدة من خالق القوَى والقدَر، الذى يعلم مصالح العباد، ويدلهم على ما هو خير لهم بالذات، (الا يعلم من خلق؟) فمهما فكر الانسان وقدر لا يدرك مصلحته الحقيقية ولا يهتدى الى ما يحققها له كما هـداه الله، ولكن حيث اننا فى مقام الاحتجاج والتوعية، فان الاستشهاد بالغيبيات لا يكفى، فلننظر فى الجواب من وجه ءاخر .

نعم لقد جاء الاسلام والعالم الاسلامى يدين بهذه الاديان المعروفة، من سماوية فى اصلها كاليهودية والنصرانية وارضية وضعية كالزرادشتية والبوذية، فدخل مواطنها، ونازلها فى

معاقلها، فلم يكن له معها الا جولة او جولتان حتى القت اليه بالمقاليد، وانقلب اهل الشام ومصر ، وهمـا مهبطا الديانتين الاوليين، مُسلِمين طائعين، عن طريق الاختيار والاقتناع ، من غير ضغط ولا اكراه. وكذلك كـان الحال بالنسبة الى اهـل فارس والهند، والاولى، وهي موطن الزرادشتية، اسلمت على بكرة ابيها، والثانية، وهي معقل البوذية، اسلم فيها عشرات الملايين، وكل ذلك انما كان بصدق الدعوة وحسن القدوة، اذ ليس من المعقـول ولا المقبول ان تتحول شعـوب بكاملها مـن عقيدتها الموروثة عن ءابائها الى عقيدة جديدة بالحرب والقتال، لا سيما اذا كانت هذه العقيدة فيما يرى القوم ءاتية من شعب بدائي لا ماضي لـه في العلم والحضارة، عـلى العكس من تلك الشعوب العريقة في التمدن والعرفان .

والتاريخ يشهد ان المسلين في فتوحهم الحربية، ما كانوا يكرهون احدا على اعتناق دينهم، وانما كانوا يقبلون من اهـل البلاد المفتوحة ما داموا على دينهم ان يعطوا الجزية. ثم يمضوا لحال سبيلهم مبلغين رسالتهم الى من وراءهم من الناس، كأنهم

انما يُعذرون لانفسهم فى القيام بالدعوة الى الله وعدم كتمان ما انزل اليهم، لكن الذى كان يقع، هو ان اهل تلك البلاد حين يرون ما عليه المسلمون من من جد واستقامـة، ويسمعون القرءان ويعون دعوته، يعرفون الحق وينقادون له، وينفضون يدهم مما بها من باطل وضلال .

وهكذا عرف اليهود والنصارى ان الاسلام جـاء مجددا لدين الله الذى اوحى به الى موسى وعيسى، ومصححا لاخطاء الاحبار والرهبان الذيـن حرفوا كلمـات الله عن مواضعهـا ، واولوها التاويلات الباطلة التى اوقعتهـم فى الشرك والكفـر وتعطيل احكام الله، وانه لا يمكن ان يكون الا وحيا جديدا، والا فمن أين للعرب الاميين هذه المعرفة العميقة باصل الدين وعقيدة التوحيد وشريعة الانبياء الصادقين؟ ولذلك سرعان ما دخلوا فى الاسلام افواجا، ولم يمض على بلاد الشام ومصر وغيرها بضعة عقود من السنين، حتى اصبحت بلاد اسلام ليس بها من اتباع اليهودية والنصرانية الا عدد قليل، لا معنى لبقائه، لو كان ما قيل من انتشار الاسلام بالسيف حقا .

ومثل هذا يقال فى اصحاب الديانات الوضعية، بل انهم احرى بالطاعة والانقياد من اهل الديانات السماوية، لان هؤلاء يستندون الى ما يستند اليه الاسلام نفسه من الوحى والتنزيل، فربما منعتهم هذه الشبهة من ترك دينهم .

ومؤدى هذا الكلام هو ان قـوة الاسلام نابعة من هـذه الاصالة التى عرفها اهل الكتاب السابقون قبل غيرهم، ولـم يسعهم الا أن يقروا بها ويخضعـوا لها، مومنيـن بانها الحق الذى لا معدل عنه، والصراط المستقيم الذى يهدى الى الرشد والفلاح. ولقد عبر النبى (ص) عن هذا المعنى تعبيرا واضح الدلالة حين رأى عمر بن الخطاب وبيده صفحة من التوراة يقرأها، فانكر عليه، وقال: الم ءاتكم بها بيضاء نقية؟ والله لو كان موسى حيا ما وسعه الا اتباعى .

ومن هنا يُعلم انه لا أضل ممن يزعمون ان النبى (ص) كان يتلقى المعلومات الدينية من إحبار اليهود، وانه فى رحلته الى الشام لقى بعض الرهبان فتعلم منهم ما جعله يدعى النبوة ويملى القرءان، فليت شعرى اكانت عقيدة التوحيد التى لبث

النبى (ص) يدعو لها ويبشر بها طوال مدة بعثته، مما تعلمه من الرهبان، وهم الكافرون باعتقاد التثليث كما جاء فى القرءان (لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثـة ، وما من الـه الا إلـه واحد) ؟

وهل ما تزرى به التوراة على انبياء الله ورسله، وما تصف به البارى عز وجل من الاعراض البشرية، كان من المعلومات التى تلقاها النبى (ص) عن احبار اليهود، والقرءان والسنـة طافحان بتنزيهه تعالى عما لا يليـق به ومخالفته للحـوادث (ليس كمثله شيء) وبتبرئة الرسل والانبياء مما اتهمهم بـه اليهود فى التوراة المفتعلة، واضفاء حلـل الاحترام والتكريـم عليهم (اولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده)؟ . .

ولا نطيل فى هذا المعنى ، فالاسلام ما جاء الا لتصحيح الوضع الدينى فى اليهودية والنصرانية، ورده الى اصله الذى كان عليه فى دعوة ابى الانبياء ابراهيم عليه السلام (ملة ابيكم ابيكم ابراهيم، هو سماكم المسلمين) فكيف يكون ماخوذا منهما، والقرءان يقول (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا، ولكـن كان جنيفا مسلما) ؟

وقبل ابراهيم كان الدين الصحيح هو عقيدة التوحيد وما شرعه الله للعباد كما تشعر به الآية الكريمة (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا، والذى اوحينا اليك، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيـه) فالخلاف انما هو فى الاسم فقط، واما الجوهر فهو هو منذ بدء التنزيل والوحى (ولـو كان من عند غيـر الله لوجدوا فيـه اختلافا كثيرا) .

من هذه الإصالة تنبع قوة الاسلام كدين لايقاوم، لتأييده بالمنطق والبرهان، حتى ان كبار الفلاسفة الذين نشأوا فـى ظله، لم يجدوا اى تناقض بين عقيدته وحقائق الفلسفة العقلية، بل ان احدهم وهو ابن رشد الف كتبا فى توافق الدين والفلسفة منها كتابه فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، وناهيك به ! . .

وتنبع قوة الاسلام أيضا من ريادته كمنهج كامل للحياة، فى ميدان الحكم والتشريع والاقتصاد، على ما المعنا لبعضه، فى المقارنات التى عقدناها فيما سبق، بينه وبين اقوى المذاهب

المعاصرة واكثرها سيطرة على الافراد والجماعات ،، وما حققناه في الفصل قبل هذا من تفتحه وقبوله لكل الافكار النافعة ، ولجميع ما يجدّ في عالم الفنون والعلوم من النظريات والآراء .

على ان اكمل ما تتمثل فيه ريادة الاسلام هو سبقه الى سن التشريعات التقدمية التى بقيت الانسانية تتعثر في خطوها نحوها قرونا عديدة، برغم العلم والفلسفة، فلم تهتد الى بعضها الا موخرا ، وفى القرن العشرين، الذى يسمونه عصر النور، وشد ما كانت دهشة كثير من المفكرين والمشرعين والفلاسفة الاجتماعيين، حين وجدوا انفسهم وجها لوجه امام الاسلام السباق الى الحلول الايجابية لمشاكل المجتمع الانساني، والرائد الذى صدق اهله واخلص لهم النصح في كل ما قدمه لهم من شرائع مُحقّقة لصالحهم، مُزِيحة لعللهم، تجعل من مجتمعهم كيانا صحيا سليما ممتنعا على المفاسد والمضار .

ونذكر على سبيل المثال التشريع المتعلق بالمرأة الذى اعطاها من الحقوق ما جعلها تقف على قدم المساواة مع الرجل،

فى حين كانت معظم الشعوب والامم لا تعترف حتى بانسايتها، وغبرت على ذلك الى عصر النهضة الاروبية التى انما استفادت من تعاليم الاسلام فى هذا الصدد .

وكذلك مبدأ مساواة الاجناس البشرية بعضها لبعض وعدم تميز جنس منها عن ءاخر باصله او لونه او غير ذلك، مما نادى بـه الاسلام اول مـا ظهر، وطبقه فعـلا على العبيد والاحرار والمماليك والسادة، وكان احد الاسباب التى جعلت صناديد الكفر والملأ من قريش تحارب دعوته، ومع ذلك لم يثن العنان ولا تراجع حتى اقره واصبح حقيقة مسلما بها فى شرعه، وفى مجتمعاته المتعاقبة والمتساكنة بمختلف الازمنـة والامكنة، وها هى ذى كثير من الدول الراقيـة ما زالـت لم تحقق العمل بهذا المبدأ وما يزال التمييز العنصرى يفرق بين ابنائها ويثير فيها مشاكل لا وجود لها اطلاقا فى بلاد الاسلام.

ومن ذلك مسألة تحريم الخمر وسائر المخدرات، فان ما تعانيه الانسانية من ويلات تعاطيها، قد فتح العيون على صواب التشريع الاسلامى، وقامت فى جميع انحاء العالم جمعيات عديدة

تدعو الى منع انتاجها وتداولها وجعلت بعض الاحزاب السياسية الكبرى فى امريكا وغيرها، منع بيع الخمر من بنود برنامجها السياسى الذى تلتزم بتطبيقه عند توليها الحكم . والاسلام قد سبق لهذا المنع قبل اربعة عشر قرنا، فيا لها من ريادة صالحة وقيادة رشيدة ! .

ومن اعظم ريادات الاسلام تحريم الربا تحريما باتا بجميع انواعه، من فائدة وقمار ويانصيب وغيرها.. وهو التشريع الذى حرر الاقتصاد الاسلامى من قبضة الرأسمالية الطاغية وتحكمها الجائر، وبقى المجتمع الاسلامى بفضله يمارس نظاما ماليا نظيفا لم يعرف شيأ من استغلال الضعف والحاجة عند المضطرين والملجأين، وكان القرض التعاونى الاحسانى هو السائد بين المسلمين، حتى هاجمتهم المدنية الاروبية بادوائها وشرورها وانشئت المصارف المالية فى بلادهم، وقامت الدعاية المغرضة بالترويج لها زاعمة ان الاقتصاد لا يزدهر الا بمعاملة هذه المصارف، وزلّ بعض الفقهاء فافتى بجواز المعاملات الربوية او بعض الصور منها عند الاضطرار، فجاءت النظم الاشتراكية

التى الغت المعاملة بالربا فى بلادها لتكذبهم، وتثبت ان ازدهار الاقتصاد ليس نتيجة المعاملات المصرفية المبنية على الفائدة، وزكت حكم الاسلام وايدت نظره فى تحريم الربا وابطال التعامل به، وحق القول الشائع: ان الله يؤيد هذا الدين بأقوام ليسوا منه. ومن المؤسف ان يتخبط المسلمون هذا التخبط، ويغفلوا عن محاسن دينهم حتى ياتى الاجانب فيعرفوهم بها .

والخلاصة ان هذا الاسلام الرائد المجرد من كل تبعية وتقليد، هو مصدر قوة المسلمين وعظمتهم، وبه ادركوا ما ادركوا من عز ومنعة وسلطان فى الماضى، وبه يدركون ما يصبون اليه من مجد وتقدم ورقى فى الحاضر، فمتى يعودون اليه، ويقصرون نظرهم عليه، وينعمون به بالا، ويقرون عينا ، ويحملون رسالته كما امروا، وكما يحمل اصحاب هذه المذاهب المختلفة رسالتها بالايمان بها والعمل عليها، والدعوة لها الى حد التجرؤ عليهم ومحاولة استتباعهم، وهم الذين امرهم دينهم ان يكونوا يدا على من سواهم وشهداء على الناس، ليكون الرسول عليهم شهيدا ؟ ! . .

(يا ايها الذين ءامنـوا استجيبـوا لله وللرسـول اذا دعاكم لما يحييكم) .

(يا ايها الذين ءامنوا اجيبوا داعـى الله وءامنوا بـه يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم) .

فهرس

صفحة